الفصل العاشر

«نحن» اليهود «هم» العرب (٢):
التعايش اليهودى العربى المفقود
والبحث عن شعلة الأمل من الماضى

فى غضون سنوات قليلة فقط من ظهور دولة إسرائيل سنة ١٩٤٨م، وصل التاريخ الطويل غير المتقطع على ألفى سنة وخمسمائة سنة لليهود فى الأراضى التى كانت قد صارت تعرف بأنها عربية وإسلامية إلى نهايته . ففى سنة ١٩٤٨ كان هناك حوالى ثمانمائة ألف يهودى يعيشون فى البلاد العربية (حوالى ٦ بالمائة من إجمالى عدد اليهود بالعالم) . وبعد ذلك بخمس وعشرين سنة كان معظم هؤلاء اليهود قد غادروها .

وسوف يجادل هذا الفصل بأنه بينما كانت الصهيونية نفسها العامل الرئيسى الذى يفسر هذا الاستقطاب العرقى غير الضرورى والمأساوى حقا بين العرب واليهود، كان يقع اللوم أيضا على تدخل الإمبريالية الأوروبية فى الشرق الأوسط على نطاق واسع . وهذا يعنى النظر - بإيجاز - إلى كيفية تصعيد أوروبا القرن التاسع عشر التوترات الدينية فى الشرق الأوسط . ويعنى أيضا النظر - وبإيجاز شديد مرة أخرى - إلى الكيفية التى زادت بها أوروبا القرن العشرين من حدة الاستقطاب بين العرب واليهود، فى غمرة أزمتها الإمبريالية، والتى أدت إلى نازية هتلر وشيوعية ستالين . والتواريخ المختصرة للصراعات التى خاضها العرب من أجل الاستقلال الوطنى فى العراق ومصر، تقدم دراسات حالة لاستكشاف كيف برزت هذه الضغوط المختلفة بنفسها .

وستكون المجادلة بأن سياسات القرن العشرين قد خذلت كلاً من العرب واليهود . ويختتم الفصل بتأمل بعض الأصوات غير العادية الساعية إلى مصالحة بين العرب واليهود فى القرن الحادى والعشرين .

وهناك باحثان صهيونيان، برنارد لويس ونورمان ستيلمان، برهنا على أنهما من

المصادر المفيدة نوعًا ما. والجدل معهما هنا لن يكون على أساس أن الأدلة التى يقدمانها منحازة؛ وإنما على أساس أنها أحادية أكثر من اللازم. ومع هذا، وعلى الرغم منهما، فإنهما يساعدان فى توفير حجج قوية فى قضية لم يكن قصدهما أن يوفراها.

الإمبريالية الأوروبية «أدانت الجماعات اليهودية» فى البلاد العربية

كانت الدعاية الصهيونية ستجعلنا نصدق أن اليهود فى البلا د العربية عانوا تحت الحكم العربى الإسلامى نفس القدر من السوء الذى عانوه تحت الحكم المسيحى الأوروبى، ولكننا نرى من تحليل جويتين الممتاز لأوراق الجنيزا القاهرية فى العصور الوسطى، والتى ناقشناها فى الفصل الرابع، أن هذه لم تكن هى الحال. وحتى برنارد لويس الذى كان حكمه على التاريخ العربى الحديث قد تم تسفيهه بوصفه صهيونيا ومستشرقا على يد إدوارد سعيد (الفصل الخامس) يسلم راضخًا فى كتابه Jews of Islam بأن أحكام «أهل الذمة» التى كانت تطبق على الرعايا غير المسلمين تحت الحكم الإسلامى لم تكن تطبق فى أغلب الأحيان، ويكتب لويس أن «الصداقات الشخصية، وشركات الأعمال، والتلمذة الفكرية، وغيرها من أشكال النشاط المشترك، كانت عادية، بل كانت شائعة وعامة فى الحقيقة» (٥٦ : ١٩٨٤) والحقيقة أنه يمضى أكثر من ذلك :

«إن التعايش بين العرب واليهود فى العصور الوسطى أقرب ما يكون إلى نموذج أوروبا الغربية وأمريكا فى العصر الحديث، وكان مختلفا تمام الاختلاف عن الموقف فى الإمبراطورية الرومانية، والإمبراطورية العثمانية، والإمبراطورية الروسية. وحسبما أوضح البروفيسور جويتين، أنتج هذا التعايش شيئا لم يكن مجرد ثقافة يهودية باللغة العربية. لقد كانت ثقافة يهودية ـ عربية، أو ربما يقول المرء بأنها ثقافة يهودية إسلامية» (٧٧ : ١٩٨٤).

فى فترات الضغط السياسى، وعندما كان العالم الإسلامى عرضة للتهديد كان يتم التشديد فى أحكام أهل الذمة، ومن المؤكد أنه كان يمكن أن تتطور العداوة تجاه الذميين. فهناك يهودى بريطانى «منفى» من الأراضى العربية، اسمه لوسيان جوباى، يرصد ازدواجية هذه التجربة اليهودية فى العالم الإسلامى بعنوان كتابه الموحى

Sunlight and Shadow (Gubbay 1999)، (ونحن نتساءل ما إذا كان مسلمو بريطانيا وبعض الأقليات العرقية الأخرى سيكونون بمثل هذا الكرم إزاء تجربتهم فى تقلبات أحوال العنصرية، لأعلى ولأسفل، فى بريطانيا المستنيرة الحديثة).

ومن سوء الحظ أن لويس لا يخبرنا سوى عن «الظل» الذى يخيم على العلاقات الإسلامية ـ اليهودية فى الفترة الحديثة.

والصهيونية أيضا لا ترى سوى «الظلال»، وزعمت لنفسها دور المنقذ لهؤلاء اليهود من البلاد العربية والإسلامية، التى أجبروا على الفرار منها حسب زعم الصهاينة، وهذا قلب يثير السخرية للأسباب والنتائج. إذ كانت الصهيونية نفسها عاملا رئيسيا فى تقويض وضع اليهود فى البلاد العربية والإسلامية. وعلى حد تعبير نورمان ستيلمان فى كتابه The jews of Arab Lands in Modern Times وهو أكثر المصادر مرجعية بالنسبة للدراسات اليهودية عن هذه المسائل:

«بحلول أواخر ثلاثينيات القرن العشرين، كانت التوترات بين اليهود والسكان المحيطين تتصاعد فى كل مكان بالعالم العربى. وفى أثناء العامين الأخيرين قبل الحرب العالمية الثانية، كان ثمة تدفق فى الحوادث التخريبية تستهدف الممتلكات اليهودية الخاصة والعامة فى العراق، وسوريا، ولبنان، وللمرة الأولى فى مصر. وكان العامل الأول هو الصراع فى فلسطين، الذى تحول فيما بعد بين سنة ١٩٣٦ وسنة ١٩٣٩ إلى تمرد صريح ضد الانتداب البريطانى والمشروع الصهيونى» (١٢-١١١ : ١٩٩١).

وتكمن أهمية هذا المنظور فى أنه يجعلنا نتساءل عن الشائعة الصهيونية الكاذبة «اللاسامية العربية». فلم تكن للتوترات بين العرب واليهود أى علاقة باللاسامية فى الاستخدام الأوروبى للمصطلح.

وقد زادت هذه التوترات فى تناسب مباشر مع نمو المستعمرة الصهيونية، التى كان ينظر إليها على أنها رأس جسر لنفس الإمبراطورية البريطانية يسبب استفزازا مطرداً، وهى الإمبراطورية التى كانت تسيطر هى والإمبراطورية الفرنسية على الأراضى العربية فى كل مكان وعلى الشعب العربى. وقد فاقمت الحركة الصهيونية الشكوك والريبة، التى كانت تتزايد بالفعل، فى ولاء اليهود بالبلاد العربية لقضايا

التحرر العربى . فاليهود والأقليات غير المسلمة ، مثل المسيحيين كان يمكن أن يظهروا بمظهر المستفيدين من الحكم الأجنبى :

«فى نفس الوقت الذى كان اليهود والمسيحيون فى معظم أرجاء العالم العربى يمرون بتجربة شعور متصاعد بالتحرر من القيود والعجز الذى ميز الماضى ، متزاوجًا مع الآفاق المتسعة للفرص ، كانت الأغلبية المسلمة - باستثناء النخبة المتمدينة - تشعر باطراد أنها فى موقف الدفاع ، وأن تقاليدها ، ونظامها الإجتماعى ، واستقلالها نفسه فى خطر . ونفس القوى التى كانت تمثل الجانب الطيب والخير بالنسبة لمعظم اليهود والمسيحيين كان ينظر إليها من جانب المسلمين نظرة عكسية . كما أن التفاؤل الناشئ لدى الأقليات كان يتناقض بشكل ملحوظ مع التشاؤم والريبة التى حكمت الأغلبية» . (Stillman 1991:45) .

وحتى لويس جاء أكثر وضوحًا بقوله «إن الحكم الإمبريالى بدأ عصرًا جديدًا من التقدم التعليمى والازدهار المادى لدى اليهود . بل إنه أكد المصير النهائى لهذه الجماعات» (Lewis 1984:172-3) .

ومن سوء الحظ أن البحث العلمى لكل من ستيلمان ولويس محدود بدعمهما للمشروع الصهيونيى . وكتاب ستيلمان يدور أساسا حول التحرش المتزايد بالأقليات اليهودية فى سياق الاضطهاد الذى وصفه بدقة . ونادرًا مايتناول الجهود التى بذلها الراديكاليون العرب واليهود فى البلاد العربية ، والتى صممت على إيجاد قضية مشتركة فى النضال من أجل التحرر العربى والذين وجدوا جمهورا مهما داخل الجماعات اليهودية . وشجاعة القيادات التقليدية للجماعات اليهودية ، التى ناضلت لكى تتمسك بالصمود فى مواجهة انتهاكات الصهيونية ، لا تحظى سوى بقدر قليل للغاية من الاهتمام . ومع هذا فإنه أثار نقطة حاسمة تماما حول القوى الأوروبية الاستعمارية التى كافحت لكى تفصل الأقليات غير المسلمة فى بلاد الشرق الأوسط عن المسلمين . ويتطلب هذا المزيد من التوسع فى التوضيح .

وها هو السير نيقيل هندرسون المندوب السامى البريطانى فى مصر سنة ١٩٢٦م يقول :

«إن قدراً قليلاً من كراهية الأجانب ليس شيئًا سيئًا بحد ذاته، لأنه يدفع بالأجنبى إلى أن يتهيئ بقدر أكبر لاعتبار السيطرة البريطانية والنفوذ البريطانى ضمانه الوحيد...هذا هو بالتأكيد الوضع المثالى:

إنه ينبغى على المصرى أن يعتبرنا أصدقاء له وحماية ضد الأجنبى الغاصب، وأن يعتبرنا الأجنبى ضمانه الوحيد ضد الظلم والتفرقة من جانب المتعصب المصرى» . (kramer1989:232).

لاحظ كيف تم تعريف اليهودى فى مصر على أنه «أجنبى» وحقا كان معظم يهود مصر مهاجرين وفدوا حديثا، بيد أنه لم يكن لبريطانيا أى مصلحة مطلقا فى رؤية هؤلاء المهاجرين، أو الأقلية اليهودية المستوطنة التى تفخر بجذورها العميقة فى مصر[1]، تندمج فى الأمة المصرية العربية، البازغة حديثا، والتى يحتمل أن تشكل تهديدا.

وفى كل مكان حكم البريطانيون والفرنسيون فيه بالشرق الأوسط، عمدوا إلى توسيع الفجوة بين الأقليات الدينية من اليهود والمسيحيين والأغلبية المسلمة . وكان هذا قد بدأ كوسيلة سياسية لتقويض الإمبراطورية العثمانية بتقديم أشكال مختلفة من «الحماية». ثم حول منح المواطنة بعض اليهود والمسيحيين إلى وكلاء مباشرين للسلطات الاستعمارية البريطانية والفرنسية بعد أن حلوا محل العثمانيين[*]. ففى الجزائر، على الرغم من كونها مثالا استثنائيا، وحيث سيطرت فرنسا منذ سنة ١٨٣٠م، كان كل يهود الجزائر قد صاروا مواطنين فرنسيين بحلول سنة ١٨٧٠م (Stillman 1991:17). وفى مصر، حاولت فرنسا تقويض سلطة بريطانيا بتقديم منح المواطنة الفرنسية . أما البلاد الأوروبية الأخرى، مثل إيطاليا، فكانت تلعب نفس اللعبة هى الأخرى . وفيما بين الحربين، كان ما يزيد عن ربع يهود مصر إما يحملون جنسية أجنبية أو تحت «الحماية» الأجنبية.(Kramer 1989:31-2).

وقد تركت المؤسسات التعليمية المسيحية واليهودية الأوروبية أثرا مشابها بتوفير التعليم الحديث (باللغات الأوروبية)، مما جهز الأقليات غير المسلمة بنصيب لا يتناسب

(*) هل تتكرر نفس السياسة الآن فى مصر ولبنان والعراق؟ وهل بقية دول الشرق الأوسط فى الطريق - المترجم.

مع عددها من المهارات المهنية الحديثة . وفيما بين اليهود، كانت مدرسة Alliance Israelite Universelle التى تتخذ من باريس قاعدة لها ناجحة بدرجة هائلة . وحتمًا، كانت أنشطتها «قد أعيد تنظيمها بسرعة فى الدوائر الرسمية باعتبارها امتدادا مهما لما رأوا فيه مهمة فرنسا الثقافية» (Lewis 1984:162) . وفى الدولة الجديدة التى أنشأها الاستعمار فى العراق، رحب الموظفون البريطانيون بتوسع الأنشطة التجارية للطبقة التجارية اليهودية العربية القديمة . وكتبوا تقارير عن تواءمهم السريع والمميز مع الفرص التجارية المتزايدة بالبلاد، ولاحظ المندوب البريطانى المدنى فى سنة ١٩١٨م «إن العناصر التى نحتاج إلى تشجيعها أكثر من غيرها هى الجماعة اليهودية فى بغداد» ويقتبس حنا بطاطو من هذا المندوب الذى كان يخدم الإمبراطورية البريطانية فى كتابه The Old Social Classes and the Revolutionary Movements in Iraq والذى يعد واحدا من أهم الكتب فى تاريخ الصراع من أجل استقلال العراق (1978:244 - 6,311) .

وفى الوقت نفسه، عندما تعمقت أزمة أوروبا القرن العشرين الأيديولوجية والسياسية، صارت بالحتم متداخلة مع المقاومة العربية القومية والإسلامية النامية ضد السيطرة الاستعمارية البريطانية والفرنسية على أراضيهم . وكما ذكرنا، كان هناك استيراد لنزعة معاداة السامية الأوروبية . وعلى الرغم من هذا لا يجب النظر بالضرورة إلى تأييد ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية فى هذا الضوء . فقد كانت المسألة مسألة مساندة عدو عدوى باعتباره صديقى، وارتبطت أحيانا باعتقاد ساذج ، وفى بعض الأحيان بلاهة واضحة، فى صدق عروض هتلر - التى تدعو للسخرية - للأمة العربية المقهورة . وكانت البرقية التى أرسلها فاروق ملك مصر إلى هتلر سنة ١٩٤١م، حالة دالة فى الموضوع ، إذ كان يتطلع إلى وصول الجيش الألمانى «الذى سيحررنا من النير الإنجليزى القاسى الذى لايحتمل» (kramer 1989:125) أما القوميون العرب الأكثر إدراكا، فلا بد أنهم عرفو أن الفوهرر الألمانى خاطب جيشه سنة ١٩٣٩ بقوله «سوف نستمر فى إثارة الاضطراب فى جزيرة العرب . . . ولنفكر باعتبارنا السادة ولنر فى هؤلاء الناس أنصاف قرود خدم يريدون أن يشعرو بلسعة السوط » (Kramer 1989:262n.122) .

وفى الوقت نفسه كان الجناح اليسارى من حركات المقاومة العربية قد اكتشف أن

الترحيب الحماسى بالماركسية أيضا كان يعنى فى العادة تأييد ستالين والاتحاد السوفييتى، وسوف يبرهن هذا على كونه انقساما كارثيا . ذلك أن تأييد ستالين والأحزاب الشيوعية العربية لخلق دولة إسرائيل، قد قوى من حجة القوميين العرب والإسلاميين اليمينيين الذين جادلوا بأن اليهودية والصهيونية والشيوعية، كلها فى الأساس شىء واحد.

وأية دراسة لتاريخ العراق خلال هذه السنوات، توضح كيف ستلعب هذه الضغوط المركبة دورها وتسىء إلى العلاقات بين اليهود والمجتمع الأوسع، وهو ما كانت الصهيونية فى ذلك الحين قادرة على استغلاله . وقد استفادت الصهيونية بشكل خاص من الاستياء الشعبى المتصاعد، ورفض سيطرة بريطانيا على العراق.

اليهود والنضال من أجل تحرير العراق

فى سنة ١٩٢٠م، كان تقدير الإدارة البريطانية لإجمالى سكان العراق حوالى مليون وثلاثة أرباع مليون، ومنهم حوالى مائة ألف يهودى. وكانت غالبية اليهود تعيش فى بغداد والبصرة (Shiblak 1986:18)[٢] وكانت الجماعة اليهودية فى العراق هى الأقدم فى العالم العربى والإسلامى وتفخر بشدة بجذورها الممتدة إلى بابل فى بلاد ما بين النهرين قديما، ولم تكن تتقبل دعوات الصهيونية.

وفى سنة ١٩٢٢م، كان مناحم صالح دانيال، وهو من أعيان بغداد البارزين من عائلة يهودية قديمة، وصار فيما بعد نائبا بالبرلمان العراقى، قد كتب فى أدب ولكن فى حزم، يطلب من الصهاينة أن يبقوا خارج العراق :

«فى كل البلاد العربية تعتبر الحركة الصهيونية تهديداً للحياة الوطنية العربية . . . وأى تعاطف مع الحركة الصهيونية ينظر له على أنه خيانة للقضية العربية.

. . . ولاشك فى أن اليهود يتمتعون حقا بمكانة محترمة. فهم يشكلون ثلث سكان العاصمة، ويعملون فى النصيب الأكبر من تجارة البلاد، ويقدمون مستوى من التعليم أعلى من المسلمين . ويعتبر اليهودى فى نظر المسلم الناهض شخصا ذا حظ جيد، ينتظر منه أن يرد الجميل للبلد الذى يعيش فيه» (Rejwan 1989:207).

وبعض اليهود العراقيين سوف يقدمون إسهامهم فى نهضة الأمة العراقية. فأول

قصة قصيرة عراقية حديثة فى فترة ما بين الحربين، كتبها يهودى هو مراد ميخائيل، وكانت تحمل عنوان «شهيد الوطن وشهيدة الحب» وكان ميخائيل واحداً من الجيل الأول من الكتاب اليهود العراقيين الذين رأوا فى أنفسهم «وطنيين عراقيين كانو يأملون بشغف فى ظهور عراق جديد، دولة مفتوحة وديموقراطية حديثة». (Somekh 1989:14). وفى هذه الفترة كان ما يقرب من ثلث كبار الموسيقيين العراقيين من اليهود (Shiblac1986:28)..

وكان أنور شاؤول كاتبا من هذا الجيل ولد فى الحلة جنوب العراق. وكان يكتب الشعر والرواية وقام بعدة ترجمات. وفى سنة ١٩٢٩م أصدر صحيفة ثقافية هى «الحصيد»، إحدى عدة صحف وجرائد أسسها الكتاب اليهود، قدمت كتابا جدد من اليهود وغير اليهود على السواء. وتم انتخاب شاؤول ـ الذى كان يحظى بتقدير كبير من رفاقه الكتاب المسلمين والمسيحيين ـ فى سنة ١٩٣٢م فى اللجنة التى رحبت بالشاعر الهندى ذى الشهرة العالمية تاجور فى بغداد.

وتحتفى السيرة الذاتية التى كتبها شاؤول بالحلة، وهى مكان يعرفه فى فخر بأنه جزء من بابل القديمة على نهرالفرات . ويكتب عن شجرة عائلته اليهودية العراقية الشهيرة عائلة ساسون، ولكنه يصف رأس العائلة بأنه الشيخ ساسون، متعمدا أن يربط شيئا خاصًا وحساسًا مثل السلطة فى العائلة بالمفاهيم الثقافية العربية الإسلامية. وكانت أمه بالرضاعة مسلمة أرضعته مع ابنها. وكان الأخوان فى الرضاعة قد التقوا مرة أخرى لقاء عاطفيا فى سن النضج ببغداد. (Somekh 1989:18).

التهديد: الفرهود وهزيمة الوثبة

قوضت الحرب العالمية الثانية، وتصميم بريطانيا على جر العراق إليها ضد رغبته، مجهودات الزعماء اليهود الذين كانوا يسعون إلى دمج الجماعة اليهودية فى الحركة من أجل الاستقلال الوطنى العراقى. حرضت السياسة العسكرية البريطانية سنة ١٩٤١م إلى أقصى حد أعمال الشغب المنحوسة ضد اليهود، والتى سميت أحيانا الفرهود، والتى خلفت مئات من الموتى.

ذلك أن الدعم الملموس من جانب اليهود للمجهود الحربى البريطانى، وعودة

ظهور الجيش البريطانى فى العراق، يبدو أنه كان سببا فى أعمال الشغب، على الرغم من أنه لا توجد رواية مرضيه عنه . يشير ستيلمان إلى دور بريطانى كاذب، ما يزال بحاجة إلى تحقيق، وكذلك انتشار الدعاية النازية الصريحة . (1999:119,413-16)

وربما كان الدعم الذى قدمه الجيران المسلمون لليهود فى الأماكن التى اختلطوا فيها ببعضهم البعض، والموقف التقدمى الذى تبناه الزعيم الروحى للمسلمين الشيعة فى بغداد، قد ساعد على تهدئة أعصاب يهود العراق(Rejwan 1989:223-4) . كان الصهاينة قادرين على رصد بعض المكاسب قصيرة المدى (Shiblak 1986:54) على الرغم من أنه ليس هناك شك فى أن الفرهود كانت صدمة وخلفت جرحا عميقا .

أما الوثبة «أقوى عصيان مسلح فى تاريخ الملكية» (Batatu 1978:545) والذى نشب فى أعقاب الحرب مباشرة، فكان يهدف جزئيا إلى استمرار التورط البريطانى فى البلاد . وكان لها إمكانية تضميد الجراح التى سببتها «الفرهود» . وقد أثارت الوثبة البلاد عن بكرة أبيها، بما فى ذلك الكثيرين من مواطنيها اليهود . ولكن ما حققته الوثبة من مكاسب، تمت مقايضتها بهزيمة العرب فى الحرب ضد الصهيونية فى فلسطين عام ١٩٤٨، وبسلوك الحزب الشيوعى العراقى .

وأثناء أحداث «الوثبة» حتى الحركة السرية الصهيونية اضطرت أن تعترف بأنها كانت«فترة إخاء» عندما كانت فكرة الهجرة إلى الدولة اليهودية فى فلسطين «تبدو بعيدة للغاية» (Shiblak 1986:55).

وتعكس السلوكيات الغريبة لحزب الاستقلال العراقى القومى اليمينى المواقف السياسية المتبدلة تجاه اليهود فى ذلك الوقت . فعندما قتل شاب يهودى، هو شمران علوان على أيدى البوليس خلال «الوثبة»، وصفته صحيفة اليقظة التى كانت تؤيد حزب الاستقلال بأنه شهيد الشعب العراقى فى حربه من أجل الحرية (٥ فبراير ١٩٤٨م)، وأثناء الشهرين التاليين كثيرا ما نشرت اليقظة أسماء المساهمين اليهود فى المجهود الحربى العربى بفلسطين (Shiblak 1986: 55-6) ومع ذلك فبعد ثلاثة أشهر بالضبط (٣ مايو ١٩٤٨) كانت اليقظة تدين الشرور الثلاثة« الشيوعيين والصهاينة واليهود» (Shiblak 1986:65) لقد قلبت حرب فلسطين الموازين . ومنحت السلطات العراقية العذر لفرض قانون الطوارئ والتحمل بشدة على الجناح الراديكالى فى الوثبة

وخاصة الشيوعيين. وتم إعدام ثلاثة من زعمائهم علنا بالشنق. وقد سلم الشيوعيون أنفسهم سلاحًا دعائيا لليمين بتأييدهم دولة إسرائيل المُشكّلَة حديثًا. وقد خسروا نفوذا حقيقيا، وربما حاسما، فى توجيه حركة الاستقلال. كان الضامن المحتمل فى الحركة الوطنية العراقية لمقاومة اللاسامية قد فشل فى اختبار بالغ الأهمية: وهو معارضة الصهيونية دونما تنازل:

«أدى القرار بشكل محزن إلى الحط من شأن الشيوعيين فى أعين الجماهير الشعبية، وعمقت الفجوة بينهم وبين الوطنيين من كل طيف، وجلبت الفوضى الرهيبة داخل صفوف الحزب نفسه» (Batatu 1978:566)

وفى الوقت نفسه، دخل حزب الاستقلال فى الحكومة.

وحان وقت استغلال اللاسامية، كما حدث فى أوروبا، كآلية للسيطرة الاجتماعية، وسحق المعارضة وتحويل الانتباه بعيدا عن فشل الحكومة. إذ أن انتصار إسرائيل فى حرب ١٩٤٨م قد بين الإحساس الخطر بالفشل. وتم طرد اليهود من الوظائف الحكومية. وتم شنق رجل أعمال يهودى ثرى علنا بزعم أنه باع مخلفات الجيش البريطانى لإسرائيل. وتم القبض على الصهاينة العراقيين. كما أن العصبة المناهضة للصهيونية، وجريدتهم اليومية«العصبة» والتى كانت فعالةجدا فى تهميش نفوذ الصهاينة فى الجماعة اليهودية، قد أغلقت وتم القبض على زعمائها واتهموا بكل من الشيوعية والصهيونية! وقد استغل طرد إسرائيل للعرب الفلسطينيين لتبرير التهديدات بطرد يهود العراق.

ومن المحتم أن الحكومة الإسرائيلية وأصدقاءها فى الغرب كان لديهم يوم مشهود لإدانة النصر الوليد لظل هتلر الذى كان يقال حينئذ إنه يطوق الأمة العراقية. كما أن الصهاينة العراقيين الذين عقدوا العزم على تدمير الزعامة التقليدية لليهود العراقيين، حققوا نصرا ساحقا على رئيس الجماعة اليهودية العراقية، الراباى (الربى) ساسون خدورى، بإجباره على الاستقالة.

كان خدورى شخصية رئيسية، وعلى ثقة بأنه أيا كانت مكائد الحكومة العراقية فإن الروابط التاريخية العميقة بين يهود العراق وبقية الشعب العراقى سوف تصمد أمام الأزمة الراهنة. وعلى حد تعبير معلق بارز فى الجويش كرونيكل التى تصدر بالولايات المتحدة، كتب:

«إن ساسون وأولئك اليهود البغداديين الذين لديهم ما يخسرونه لا يحبون الصهيونية؛ لأنها جلبت عليهم البؤس. إنهم يعرفون أن هناك هبّات معادية لليهود فى بغداد قبل الصهيونية، ولكن على العموم، ساعد التسامح الإسلامى اليهود البغداديين على أن يزدهروا بوصفهم مركزا للتعليم والتجارة. وهم ومن على شاكلتهم سوف يحبون أن يبقوا . إنهم مشدودين إلى بيوتهم، وتقاليدهم، ومزارات الأنبياء، ولن يحبوا أن يتركوها لكى يبدأوا الحياة مرة أخرى فى معسكر مهاجرين بإسرائيل، حيث يعتقدون أن الناس ليسوا ودودين بصفة خاصة مع اليهود الشرقيين» (٣٠ ديسمبر ١٩٤٩، أوردها Shiblak 1986:77).

هذه الملاحظات البصيرة أمسكت بدقة باللحظة الحيوية فى مصير الجماعة اليهودية العراقية التى يرجع تاريخها إلى ٢٥٠٠ سنة مضت . وكان رئيس اليهود قد اشتكى بمرارة من إهانة العراق فى الصحافة الغربية، التى بالغت بشكل خارج عن كل المقاييس فى مستوى اللاسامية بالبلاد. وقد تذكر فيما بعد بصورة تهكمية كيف «كانت الدولارات الأمريكية تذهب لإنقاذ اليهود العراقيين ـ سواء كان اليهود العراقيون يحتاجون إلى الإنقاذ أم لا . لقد كانت هناك مذابح يومية فى جريدة نيويورك تايمز تحت سطور التواريخ التى لاحظ قليلون أن أخبارها جاءت من تل أبيب» (Shiblak 1986:76).

واحتقار الرابای (الربى) الرئيس السابق لمزاعم الصهيونية عكست ثقته فى أن موجة المشاعر المعادية لليهود سوف تخبو. وعلى أية حال، كانت هذه أزمة غير مسبوقة زادت وطأتها حتى وصلت نقطة الانكسار بسبب التدخل الخارجى من جانب البريطانيين والأمريكيين والصهاينة. وحدث أيضا أنها كانت أزمة لا يوجد بشأنها رواية تاريخية مرضية. على الرغم من أنها كانت تدمر الجماعة اليهودية العراقية بالفعل. وما يلى عدد قليل من الحقائق الأساسية، على الرغم من أنها تربك العقل تماما.

مهرجان رد الفعل
كيف ساعدت بريطانيا والولايات المتحدة وإسرائيل الحكومة العراقية على تدمير الجماعة اليهودية العراقية؟

أولا : لدينا موظفون حكوميون بريطانيون يلهبون المواقف المعادية لليهود من جانب الحكومة العراقية، لكى يحسنوا خطتهم الجديدة الرائعة لمساعدة إسرائيل فى «حل»

مشكلة اللاجئين الفلسطينيين التى كانت إسرائيل نفسها هى التى خلقتها . ويمكن «مبادلة» اليهود العراقيين بالعرب الفلسطينيين المطرودين من إسرائيل - وهى خطة لم تتحقق أبدا بطبيعة الحال . ووضعوا بعض التوابل على مقترحاتهم برؤية داخلية من لدنهم ذات خصائص محلية ونكهة لا سامية . وهنا عينتان فقط من بحث عباس شبلاق المدقق فى وثائق الخارجية البريطانية التى ترجع إلى تلك الفترة :

«إذا كان يمكن تحويل هذا التهديد [بطرد اليهود العراقيين]إلى ترتيبات ينتقل اليهود العراقيون بمقتضاها إلى إسرائيل ويتلقون تعويضات عن ممتلكاتهم من الحكومة الإسرائيلية، على حين يتم توطين اللاجئين العرب بممتلكات اليهود بالعراق، فإن هذا سوف يبدو شيئا يستحق الثناء .... فإن العراق سوف يستريح من أقلية موقفها عرضة دائما لأن يضيف المصاعب فى الحفاظ على النظام العام فى وقت التوتر ...» (Foreign Office to British Embassy, Baghdad, 5 september 1949 cited Shiblak (1986:83).

وكون أن الحكومة البريطانية كانت تستخدم قنوات ديبلوماسية لنشر الموضوع بين الأصدقاء العرب الموثوق بهم يبدو واضحا من هذا الخطاب إلى مكتب العلاقات الخارجية Foreign office من القنصلية البريطانية فى القدس :

«ويمكن أن يكون على الأقل اهتماما أكاديميا إذا ما وضعت الآن فى السجل، وهى ملاحظة أبداها لى الشايكونت صمويل [أول مندوب سامى بريطانى فى فلسطين بعد إعلان بلفور] عندما كان فى فلسطين سنة ١٩٤٩م . وقد تناول الشاى مع زوجتى بعد أن تناول الطعام مع الملك عبد الله ملك الأردن . وبينما كنا نناقش استيلاء اليهود على الممتلكات العربية، قال لورد صمويل : إن الطريقة الواضحة لحل هذه المسألة كانت بالنسبة للعراقيين هى أن يطردوا اليهود الموجودين لديهم ويستولوا على ممتلكاتهم . . . .» British Consulate, Jerusalem to Forign Office, 24 march 1951cited Shiblak (1986:84 n .20).

ثانيا: لدينا ظهور عملاء الصهيونية من إسرائيل، يعقدون صفقات مالية سرية غاية فى الخسة والوضاعة مع السياسيين العراقيين، فى أعلى مستويات الحكومة، لكى ينظموا

خطة «إخلاء» الجماعة اليهودية العراقية عن طريق الجو . ومع ذلك لم يكلف أحد نفسه عناء استشارة اليهود العراقيين أو معرفة رأيهم. وتورطت شبكة نقل جوى أمريكية فى الصفقة، بمؤازرة من حكومة الولايات المتحدة. ووقفوا بعض السياسيين العراقيين مع المشروع لكى يربحوا ماليا، بما فيهم رئيس الوزراء، السويدى (Shiblak 1986 115-19).

ويؤكد التقرير الذى كتبه الباحث اليهودى العراقى المحافظ ، البروفيسور إيلى قدورى ، فى مدرسة لندن للاقتصاد London School of Economic المنطلق الأساسى لوصف شبلاق هنا . وقدورى حاقد على سلوك بعض العملاء الصهاينة ، واتهمهم بالاستيلاء على (سلطة مغتصبة لا سيطرة عليها) فى الجماعة اليهودية العراقية ، وهو يقتبس عن مير بصرى ، أحد القادة التقليديين للجماعة اليهودية ، والذى لم يكن يعارض فى ذهاب اليهود العراقيين إلى إسرائيل ، ولكنه فى الوقت نفسه عبر عن القلق بشأن معاملة المهاجرين اليهود الفقراء . إذ أنهم لم يروا مرة أخرى مدخراتهم وغيرها من الأشياء الثمينة التى عهدوا بها إلى الموظفين الصهاينة الذين عينوا أنفسهم بأنفسهم (kedourie 1989 :53-4).

ثالثا : كان مشهد الحكومة العراقية وهى تجهز نفسها للاستيلاء على أعمال وممتلكات أكثر اليهود ثراء . وكان همفرى تريفيليان ، ممثل بريطانيا فى العراق موجودا لتقديم المشورة المفيدة . فقد أخبر تريفيليان رئيس الوزراء العراقى ، وهو السويدى ، أنه يجب أن يدرس الإجراء الذى اتخذ من جانب الحكومة الإسرائيلية فيما يتعلق بالممتلكات التى تركها اللاجئون العرب» (kedourie 1989:50) .

وأخيرا كان هناك سلسلة من تفجيرات القنابل، فيما بين أبريل سنة ١٩٥٠م ويونيه ١٩٥١م، فى المناطق التى كان اليهود يتجمعون فيها، بعدما صار واضحا أن معظم اليهود العراقيين ليس لديهم النية لمغادرة البلاد ـ على الرغم من كل الضغوط التى مورست عليهم للرحيل.

وحينئذ أعلنت السلطات العراقية أنها كسرت حلقة جاسوسية وقبضت على زعمائها. وقد اتهم الدليل الذى قدم للمحكمة بعض الأفراد العسكريين الإسرائيليين بأنهم وراء حملة تفجيرات القنابل، وكذلك التورط فى شبكة صهيونية عراقية سرية.

وأثناء فترة الأربعة عشر شهرا التى لم يقبض فيها على أحد بسبب تفجيرات

القنابل، بدأ الذعر يستولى بقبضته على الجماعة اليهودية فى العراق . وسجل عشرات الألوف من اليهود العراقيين أسماءهم طلبا للهجرة .

وعلى الرغم من أن الحكومة الإسرائيلية قد أنكرت مسؤليتها دائما، والحكومة العراقية كانت مهتمة بشكل يثير السخرية بأنها «تقنع» مواطنيها اليهود السابقين بأن يتركوا البلاد، كانت هناك اتهامات دائمة تشير بأصبع الإتهام إلى السلطات الإسرائيلية . وقد قدمت صحيفة «الفهد الأسود» وهى صحيفة تنطق بلسان يهود البلاد العربية المتضررين، تقريرا مفصلا عن الأنشطة الصهيونية فى أوائل سبعينيات القرن العشرين . وهذا أيضا هو رأى ديفيد هيرست، المراسل المميز لصحيفة الجارديان فى الشرق الأوسط[٣] .

ومذكرات ويلبر جرانى إيفلان، الذى كان مستشارا سابقا لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية فى بغداد آنذاك، والتى تحمل عنوان « Ropes of Sand » (1980) تشير حتى إلى تورط الولايات المتحدة الأمريكية فهو يكتب أن وكالة المخابرات المركزيةC I A كان من رأيها أن الموقف فى العراق كان «مبالغا فيه ويتم إشعاله إصطناعيًا من الخارج» إلا أن «وزارة الخارجية الأمريكية حثتنا على التدخل لدى الحكومة لتسهيل الجسر الجوى الذى كان الصهاينة ينظمونه لإنقاذ بقية اليهود العراقيين» (Shiblak 1986:121-22) .

وتمشى الدراسات التاريخيه اليهودية على أطراف أصابعها حول هذه الحوادث، حتى بعد مضى حوالى نصف قرن على حدوثها . إذ أن ستيلمان يقذف بالحكاية كلها فى هامش ملتف وغير واضح، ولكنه يشعر بأنه مضطر إلى اقتباس جوهرة حكمة حقيقية من قدورى، الذى لاحظ ببساطة أن «الصهاينة كانوا قادرين على استخدام مثل هذه الأساليب» (Stillman 1991: 162 n .49) .

وفى ١٩٥٨م تمت الإطاحة أخيرا بالملكية العراقية الفاسدة التى أقامتها الإمبريالية البريطانية بواسطة انقلاب الضباط الأحرار، بقيادة اللواء عبد الكريم قاسم . لقد كان ذلك هو العمل الذى لم تنجزه «الوثبة»، وقد أشعل حماسة مظاهرات التأييد الجماهيرية الضخمة .

واستمر نظام حكم عبد الكريم قاسم خمس سنوات لا غير . ولكن حتى فى ذلك الوقت القصير، برهن دونما شك، على أن الزعماء القوميين العرب، إذا ما أتيحت لهم فرصة الحكم دون تدخل خارجى، كانوا قادرين على ممارسة مسئولياتهم تجاه رعاياهم اليهود.

ويتذكر مير بصرى، زعيم الجماعة اليهودية العراقية، قائلاً باسم حوالى ثلاثة عشر ألف يهودى بقوا فى العراق ما جرى: «كانت تلك فترة ذهبية لمن بقى من اليهود العراقيين» (The Scribe, June 1988)[٤].

وكان رئيس الوزراء الأسبق السويدى واحداً من السياسيين العراقيين السابقين الذين حوكموا بتهمة الخيانة على أيدى نظام الحكم الجديد. وإحدى العبارات التى قرئت فى عريضة الاتهام كانت أنه كان قد ساعد إسرائيل «بالسماح لمائة ألف عراقى أن يصبحوا مواطنين إسرائيليين» (Woolfson 1980:196).

ناصر فى مصر
هل كان يمكن للقومية العربية التقدمية أن تحرر العرب واليهود؟

يظل الانقلاب العسكرى الذى قام به تنظيم «الضباط الأحرار فى مصر سنة ١٩٥٢م ـ وهو النموذج الذى احتذى به ضباط الجيش العراقى الثوريون[٥]، ثم ما تلاه من ظهور جمال عبد الناصر رئيسا لجمهورية مصر ـ هو أهم حادث فى التاريخ الوطنى العربى. وقد جاء بعد سنوات من الاضطراب فى مصر، وفى خضم هبوط معنوى واسع المدى فى جميع أنحاء العالم العربى فى أعقاب الهزيمة فى الحرب الإسرائيلية ـ العربية حول فلسطين سنة ١٩٤٨م. وكان ذلك علامة على حزم عربى أقوى كثيراً وأشد حيوية بعدما يزيد على مائة سنة من المهانة على أيدى الإمبريالية الغربية، وخاصة بريطانيا وفرنسا. وكان مقدراً لناصر أن يصير هو النقطة المحورية للتطلعات القومية العربية فى جميع أرجاء الشرق الأوسط.

فماذا كان موقف الضباط الأحرار من يهود مصر؟ قدم لنا ستيلمان تقريراً مذهلاً:

«النظام الثورى الجديد فى مصر... خرج ليؤكد لليهود وغيرهم من الأقليات التى

كانت قد اهتزت على نحو سيئ بالأحداث التى جرت أواخر أربعينيات القرن العشرين وأوائل الخمسينيات (عندما كانت المشاعر المعادية لليهود تتصاعد زمن حرب فلسطين وتكوين الدولة الإسرائيلية). فقد قام اللواء محمد نجيب رئيس مجلس قيادة الثورة والقائد المحبوب شعبيا بزيارات علنية لمؤسسات الجماعة اليهودية بالقاهرة والإسكندرية، بما فى ذلك ظهور غير مسبوق لرئيس مصرى بالمعبد اليهودى الكبير بالقاهرة فى يوم كيبور (الغفران)، بعد شهرين فقط من الوصول إلى الحكم. ورفضت الحكومة الجديدة بوضوح أن تخلط بين الجماعة اليهودية المحلية والعدو الصهيونى ورفضت بقوة الدعوات التى انطلقت من داخل الجامعة العربية لتجميد ممتلكات اليهود فى جميع الدول الأعضاء...

هذه الفترة القصيرة الصافية بدأت حتى نهاية سنة ١٩٥٤م عندما عزل ناصر ــ الذى كان هو القوة الحقيقية وراء الثورة ــ اللواء محمد نجيب. وأثناء السنة نفسها، تم كشف شبكة تخريب وتجسس مكونة من شباب يهود مصريين يعملون لحساب إسرائيل ... وقد أدى هذا إلى تقويض جهود العمل على استقرار الجماعة اليهودية فى مصر» (Stillman 1991:168-9).

***

وللأسف يترك ستيلمان الموضوع عند هذا الحد، تاركًا أسئلة حيوية تلح فى طلب الإجابة. هل كانت هناك علاقة بين شبكة التجسس والتخريب، التى تسمى أحيانا «عملية سوزانا»، والمرتبطة بالفضيحة المعروفة باسم فضيحة لاڤون، وقدوم ناصر إلى سدة الحكم؟ ماذا كان موقف ناصر من الجماعة اليهودية، أو موقفه من العدو الصهيونى؟ وهل كانت هناك علاقة بشبكة التخريب فى العراق؟ على السطح يبدو هناك تطابق عجيب. على أية حال، لم يقم الدليل على أن هناك رابطة بينها. كما أن هناك فروقًا حاسمة. ففى العراق، كان الهدف الأول هو بث عدم الاستقرار وزعزعة الجماعة اليهودية. أما فى مصر فلا شك أن هذا كان من النتائج ولكنه لم يكن الهدف الأساسى. وفى العراق عكس ما حدث بعمق اتجاه رغبة الحكومة الملكية العراقية التى كانت تشاطر إسرائيل رغبتها فى اقتلاع الجماعة اليهودية العراقية، وهو ما أسماه

قدورى «التواطؤ البشع» (Rejwan 1997:45). وفى البداية لم تكن لدى جمال عبد الناصر مثل هذه الرغبة. وفى العراق لم تكن لدى إسرائيل مشكلة مع الحكومة الرجعية. ولكن منذ اللحظة التى تولى فيها جمال عبد الناصر السلطة، كان هدفًا لحملة إسرائيلية متواصلة للقضاء عليه.

كان هذا على الرغم من استعداده [ناصر] المدهش ـ والمعروف قليلا ـ لاستكشاف إمكانية سلام حقيقى ومشرِّف مع إسرائيل. والواقع أن هناك رأيا جديرا بالتأمل بأن القصد من «عملية سوزانا» كان إفشال مناقشات السلام السرية هذه. ومن المؤكد أنه يبدو ـ مع فائدة الإدراك بعد فوات الأوان ـ أن ذلك كان بداية للعد التنازلى الطويل المدى للقضاء على جمال عبد الناصر على أيدى إسرائيل وحلفائها الغربيين.

وما كان يثير إسرائيل بشكل خاص تلك المناقشات التى كانت تجرى بين جمال عبد الناصر والحكومة البريطانية حول انسحاب الحامية البريطانية من منطقة قناة السويس. وكانت إسرائيل تعارض حصول مصر على الاستقلال الحقيقى. وكانت «عملية سوزانا» مؤامرة لخلق انطباع بالفوضى فى الدولة الوطنية الجديدة لكى تقنع البريطانيين بأن وجودهم العسكرى ما يزال ضروريا. (Shlaim 2000:112).

وكان جمال عبد الناصر نفسه هو الذى أثار الأسئلة بشكل خاص حول هدف المتآمرين لقطع المناقشات السرية بين ممثليه وممثلى رئيس الوزراء الإسرائيلى موشى شاريت (Shlaim 2000:119)[٦]. وتشير مذكرات أحد المتآمرين إلى استنتاج مماثل (Beinin 1998:278n.32).

وقد حاولت الحكومات الإسرائيلية المتوالية دائما أن تبقى الغطاء محكما على ما حدث حقًا. وقد انفجرت الأصداء طويلة المدى «لعملية سوزانا» أو «فضيحة لاڤون» فى وجه بن جوريون أوائل ستينيات القرن العشرين، مما دمر مصداقيته بصورة خطيرة. والحقائق الأساسية هى كما يلى:

كان لاڤون وزير الدفاع فى حكومة شاريت. وكان شاريت يعتبر فى نظر الكثيرين رجلاً ضعيفًا بلا كفاءة. وفضلاً عن ذلك كان يشك فى أنه متساهل مع العرب. بل كان له أصدقاء من العرب، وهو أمر نادر حقا بين الزعماء الصهاينة (Shlaim 2000:97). أما لاڤون فكان متشددا متطرفًا، وقد شجع بن جوريون على

تعيينه فى منصبه، وكان بن جوريون ما يزال نشيطا على الرغم من تقاعده المؤقت، ويقف وراء ما يجرى فى المشهد. وقد تم تنظيم عملية سوزانا دون معرفة شاريت على أيدى عناصر من المخابرات العسكرية.

وقد أنكر لاڤون دائما أنه أعطى الأوامر؛ ومع ذلك ثم توجيه اللوم إليه. وقد عجل إصرار لاڤون فيما بعد على أن يثبت براءته بتنازل بن جوريون النهائى عن نفوذه. وعلى الرغم من أن المؤامرة تحولت إلى خيبة ثقيلة، وتم القبض على مفجرى القنابل قبل حدوث أى ضرر خطير، فإن ناصر والسلطات المصرية قد اهتزوا من جرائها بطبيعة الحال. لقد كانت على أى حال ما نسميه اليوم تهديداً إرهابيًا. وكان جزء من الخطة يقضى بأن توضع القنابل فى دور السينما التى تعرض أفلامًا أمريكية وبريطانية، فى وقت متزامن مع الاحتفال بالذكرى السنوية لثورة الضباط الأحرار، مما يسبب خسائر لا تعد فى الأرواح.

واللافت للنظر أن جمال عبد الناصر قد حافظ على خطوط الاتصال مفتوحة مع شاريت، وقبل كلمة شاريت بأنه لم يكن متورطًا. وكان شاريت هو الذى أقفل المحادثات عندما انتهت محاكمة متآمرى التفجيرات فى القاهرة بحكم الإعدام على اثنين من المتهمين. وكان شاريت يضغط على جمال عبد الناصر لكى يتجنب حكم الإعدام، ولكن ـ حسبما أوضح شلايم ـ لم يكن بوسع عبد الناصر أن يستجيب لهذا لأن حكم الإعدام كان قد تم تنفيذه منذ فترة وجيزة على أعضاء فى جماعة الإخوان(*). ولم يكن من الممكن الدفاع عن التعاطف مع الإرهابيين اليهود بقدر أكبر من الإخوان المسلمين (2000:121).

وفى الوقت نفسه قدم شاريت رواية مختلفة جدا للأحداث للبرلمان الإسرائيلى وعامة الجمهور. إذ كان قد اتهم الحكومة المصرية بإجراء محاكمة مظهرية ليهود مصريين أبرياء. واثنان منهم سيتم إعدامهما. وسادت حالة من الهيستيريا لتلهب إسرائيل كلها ضد مصر تحت حكم جمال عبد الناصر.

(*) ولكن بعد خمسين سنة، أصبحت الحكومة المصرية فى حالة ود وصفاء مع الصهيونية ومع شارون صاحب السجل الإرهابى المتفرد، ونفور ورفض، إن لم يكن عداء، للإخوان المسلمين.

واستقال لاڤون، وخلفه بن جوريون وزيراً للدفاع. و كان بن جوريون مصممًا على تأكيد سلطته على شاريت وعلى جمال عبد الناصر. وفى غضون أسبوع واحد فقط كان قد نظم «عملية السهم الأسود»، وهى غارة عسكرية سرية داخل غزة. (Shlaim 2000:123-9).

كانت غزة تحت الإدارة المصرية على أساس الهدنة بين مصر وإسرائيل فى نهاية الحرب الإسرائيلية - العربية سنة ١٩٤٨ . وكان القصد من عملية السهم الأسود أن تمزج بين أقصى درجات الاستفزاز وأقصى درجات الإذلال لجمال عبد الناصر . فقد تم قتل سبعة وثلاثين جنديًا مصريًا وجُرح واحد وثلاثون، فى مقابل ثمانية جنود قتلى وتسعة جرحى من الإسرائيليين . وكان ذلك أخطر صدام بين مصر وإسرائيل منذ اتفاقية الهدنة، وقضت إلى الأبد على أية أوهام لدى ناصر فى أن يبحث عن حل سلمى للصراع العربى الإسرائيلى . فمنذ تلك النقطة سوف يعتبر جمال عبد الناصر أن إسرائيل أداة الإمبريالية الغربية وعدواً لدوداً .

وهنا يبدأ الطريق إلى أزمة السويس سنة ١٩٥٦م، وهزيمة جمال عبد الناصر فى حرب ١٩٦٧م. كما أن الأسلحة المصرية التى سُلمت إلى الفلسطينيين فى معسكرات اللاجئين تبدأ هنا أيضا. وقد بنى مستقبل شارون المهنى على قتل العرب وكانت بدايته فى وقت سابق بالمذبحة التى ارتكبها فى قرية قبية الأردنية سنة ١٩٥٣م (Shlaim 2000:90)، ولكن غارة غزة أسبغت على هذا إثارة مدوية. فقد كان شارون هو القائد العسكرى لهذه ا لعملية. وقد كانت عملية السهم الأسود أكثر من تعويض لفشل عملية سوزانا.

ولكن يهود مصر هم الذين دفعوا الثمن النهائى : فبعد السويس أجبر الكثيرون على الرحيل من البلاد (Beinin 1998:86-7) . وليست لدينا طريقة لمعرفة ما إذا كان جمال عبد الناصر يستطيع هو وثورته أن يحتضنوا الأقلية اليهودية، ولكن إسرائيل كانت قد خربت جهود ناصر للسلام، وكذلك مكانة يهود مصر . ويعبر آڤى شلايم عن ذلك بمرارة واضحة :

«هذه الهجمات بدا وكأنها تؤكد أسوأ الأنماط المصرية عن خيانة اليهود وازدواجية سلوكهم وأسوأ المخاوف بشأن المؤامرات الشيطانية التى تحيكها إسرائيل لتقويض وحدتهم الوطنية واستقلالهم» (2000:118).

فقد كانت عملية سوزانا قد دمرت الثقة فى ولاء يهود مصر ووطنيتهم. وثمة شاهد إسرائيلى مهم، ومن المؤكد أنه مدهش، يدعم هذا الاستنتاج. ففى أوائل تسعينيات القرن العشرين الباكرة، كان عالم الأنثروبولوچيا عمانويل ماركس يخدم مديراً للمركز الأكاديمى الإسرائيلى فى القاهرة، وهو مؤسسة يحط من قدرها الوطنيون المصريون باعتباره مركزاً للتجسس والتخريب. **وبعد أن ترك ماركس القاهرة عائداً إلى عمله فى التدريس بجامعة حيفا، افترض أنه لولا عملية سوزانا، لما حل الدمار بالجماعة اليهودية فى القاهرة: «إن أولئك المسئولين عن الأعمال القذرة [يقصد المخابرات الإسرائيلية وعملياتها التخريبية والإرهابية] قد استغلوا اليهود فى مصر... وقد سبب هذا تمزق العلاقات»** (Beinin 1998:239).

اليهود فى العالم العربى
ضحايا سياسات الفشل فى القرن العشرين

ألفريد دريفوس، ضابط بالجيش الفرنسى تم القبض عليه فى واحدة من أشهر فضائح اللاسامية فى القرن التاسع عشر، رفض الصهيونية باعتبارها حافلة بالمفارقات (على الرغم من أن الصهيونية تاجرت باسمه فى سعادة. انظر الفصل السادس)، وكانت تلك ملاحظة تتعلق تماماً بالموضوع. وكان يعنى أن الصهيونية هربت فى وجه الثورة الفرنسية سنة ١٩٧٩م. فقد كانت الثورة قد طالبت بفصل السياسة عن الدين فى الدول الوطنية الديموقراطية البازغة حديثاً فى أوروبا.

والصهيونية ـ بينما تتشرف بهذا المثال ـ قد مارست عكسه. لقد ربطت الديانة اليهودية إلى عربة الاستعراض القومية الخاصة بها، التى ظهرت إلى جانب الأمم الأوروبية، فى الشرق الأوسط، باعتبارها جزءاً من مجموعة إمپريالية غازية، ثم طالبت بالأرض العربية باسم يهود العهد القديم.

لماذا ينبغى أن نتوقع من الإسلام والأمة العربية أن تقدم التنازلات للعالم الحديث

بشأن فصل السياسة عن الدين بينما لانطالب أكثر ممثلى الغرب استفزازاً أن يفعل هذا؟ إن هذا لدليل إضافى على غطرسة الغرب وعلى نزعة «الاستشراق» الباقية لديه.

ولدينا هنا نقص خطير يشوب سياسات الحداثة. إذ أن صهر الدين بالقومية ـ على نحو يحمل مفارقة لا منطقية، ولكنه مزروع عمداً ـ قد أتاح لقنبلة موقوتة أن تضرب دقاتها فى الشرق الأوسط. ولا بد أن قادة الإمبراطورية البريطانية كانوا قد تنبأوا بها، ولكن، على العكس كان يناسبهم أن يلعبوا مع الصهاينة وهم يهندسون ـ أو يصطنعون ـ تحويل الديانة اليهودية إلى أيديولوچية قومية. كان ذلك هو الظرف المناسب والأساس المنطقى لزرع جمهرة من المستوطنين اليهود الأوروبيين فى فلسطين بطريقة مصطنعة. وكان عرب فلسطين هم أول الضحايا. أما ثانى الضحايا فكانوا هم اليهود فى العالم العربى.

لقد نجحت الصهيونية فى خلق أزمة ولاء سياسى لهؤلاء اليهود. إذ أنها جعلت منهم ـ دونما ضرورة على الإطلاق ـ أجانب فى ثقافة كانت بالنسبة لكثير منهم هى ثقافتهم الخاصة على مدى أكثر من ألف سنة. والأسوأ من هذا، أنها كانت تعنى أنهم كان يمكن أن يظهروا بمظهر الخونة فى البلاد النامية حديثًا والتى تناضل للإطاحة بالسيطرة الأجنبية. لقد كسبت الصهيونية الحرب الأيديولوچية بالفعل وختمت على مصير هؤلاء اليهود، عندما صوتت الجمعية العامة للأمم المتحدة، فى نوفمبر سنة ١٩٤٧م على تقسيم فلسطين العربية إلى دولة عربية ودولة يهودية. وفى اليوم السابق، كان محمد هيكل، أحد زعماء حزب الأحرار الدستوريين المصرى، وهو حزب وطنى علمانى له سجل جيد فى الدفاع عن يهود مصر، كان يسلم تمامًا بأنهم ـ يجب أن يكونوا مواطنين كاملى المواطنة فى مصر المستقلة ـ كان هيكل قد حذر الأمم المتحدة بقوله: «إذا كان الدم العربى يراق فى فلسطين، فإن الدم اليهودى سوف يراق بالضرورة فى كل مكان آخر، على الرغم من كل الجهود المخلصة للحكومات المهتمة لمنع مثل هذه الردود الانتقامية» (Beinin 1998:60)[٧].

كان التحذير يخفى اعترافًا بالاستسلام. فقد كان الغرب قد نجح فى فرض يهودية مشوشة ومسيسة تمامًا باعتبارها قومية لكى تخدم مصالحها فى العالم العربى. وكان لا بد من الردود الانتقامية المتوقعة أن تكون هى التكتيكات السلبية اليائسة بلا جدوى من

جانب الأمة العربية المُهانة. وكـان لا بد للعنف الذى انطلق على المدى القصير أن يخلى مكانه لعزلة اليهود فى العالم العربى على ا لمدى الطويل.

ليلى مراد، نجمة السينما فى العالم العربى.... وخائنة؟

إن مـصـيـر ليلى مـراد، وهى واحـدة من أبرز ممثلات العـالم العـربى فى القـرن العـشـرين، «وسندريلا الشـاشـة المصـرية . . . والمطربة الثـانيـة بعـد أم كلثـوم التى لا تُبارى»(Beinin 1998:83 -5) هو العكس[٨]. فبعد ظهورها فى ٢٨ فيلمًا على مدى ما يزيد على عشرين عامًا، وتسجيل مئات الأغنيات، وهى إبنة حاخام يهودى ورئيس جـوقـة منشـدين فى المعبـد اليـهـودى، (Alcalay 1993:254)، تقـاعـدت فـجـأة سنة ١٩٥٥م. وكانت تقارير الصحافة المصرية والعربية قد اتهمتها سنة ١٩٥٢م بأنها منحت مبلغًا كبيرًا من المال إلى إسرائيل. وقد أنكرت هذا الاتهام بصلابة. وقد أصابها إحباط خاص لأنها كانت قد أعلنت اعتناقها الإسلام برغبتها عندما تزوجت الممثل والمخرج أنور وجدى سنة ١٩٤٦م «إننى مسلمة مصرية»، هذا ما أعلنته.

وعلى الرغم من هذا كله بقيت لها شعبيتها الواسعة فى مصر، وهويتها المختلطة ما بين الإسلام واليهودية كانت مصدرًا للجدل، ومن المؤكد أنها قد سببت الكثير من الفضول والتعاطف وكذلك العداء.

وبعد أن حققت السلطات المصرية فى التهم الموجهة ضدها وجدت أنها بريئة. وعلى أية حال فـإن الحكومة السـورية لم تكن مقتـنعة واستـمرت فى فرض حظـر شامل على أفلامها وأغـانيها. وخلال المفاوضات لقـيام الجمهورية العربيـة المتحدة سنة ١٩٥٨م بين مصـر وسوريا، أصـر جمـال عبد الـناصر على رفع الحظر على أعـمالهـا، واستـجابت الحكومة السورية إذعانًا (Beinin 1998:84-8).

وقصة ليلى مراد هذه إنتاج حى، دراما عربية يهودية حقيقية، وهى كذلك جزء من التاريخ العربى ـ اليهودى فى القرن العشرين. ولكنها ليست معروفة كما هى. وهنا يصرخ فشل الأساليب السياسية فى وجوهنا. إن عبارة «التاريخ العربى ـ اليهودى» نفسها تصرخ فى جلبة. إنه تاريخ مفقود، إنه يقيس نجاح الصهيونية فى فصم الروابط بين العرب واليهود. وعند بداية القرن الحادى والعشرين كانت المذاهب القومية الخائفة

والرجعية التى تتمسح بالحكمة فى الدول العربية الطاغية تلتقى مع الرؤية الصهيونية. وكان نمو جماعات الإسلام السياسى المتشددة هو البديل الحتمى. أما البديل الشيوعى فكان قد كشف عن إفلاسه. والشيوعيون الجدد الذين ينتمون إلى حركة معاداة العولمة، وحفنة من القوميين العرب التقدميين، الذين كانوا يناضلون ضد انهيار الروح المعنوية وضد القهر، والذين هم على استعداد للتضحية برؤوسهم، يقدمون الأمل، بيد أنهم ما يزالون غاية فى الضعف بحيث لا يمكنهم تغيير الحال، ولا عجب فى أن تنظيم القاعدة قد اقتحم المشهد ـ وهو الرمز الكامل على الإخفاق السياسى.

«التهوية على شرارة الأمل فى الماضى»

علينا أن نصل إلى ذلك التاريخ المفقود. باكتشاف هذا الماضى مرة أخرى، يمكننا ـ على حد تعبير والتر بنيامين ـ أن نكتشف أن:

«موهبة التهوية على شرارة الأمل من الماضى، (وهى عملية مجهدة)، قوة ارتجاعية سوف تستدعى باستمرار أن نتساءل عن كل نصر ـ فى الماضى وفى الحاضر ـ للحكام» (Alcalay 1993:215).

وربما كتب أميل الكلالى الذى يقتبس هذه القطعة الرائعة، أحسن كتاب عن اليهود القادمين من العالم العربى فى القرن العشرين. وهو ليس تاريخًا بالضبط، ولكنه نبوءة شعرية جسورة، بيد أنهامؤقتة تمامًا. وهى تأخذ بدايتها من حكاية ليلى مراد الخيالية على نحو غير مقصود. وهناك إيماءات مُعذِّبة تشير إلى طريق الخروج من الأزمة، بيد أن المستقبل يبقى غائبا فى ضبابات الغموض والشك. وعندما تفشل السياسة ينبغى للشعر أن ينهض بالمهمة.

فقد جمع الكلالى طاقمًا من المعارضين: يهودًا وبعض الفلسطينيين وفنانين، وروائيين وشعراء بالأساس، ممن ترعرعوا فى الأراضى العربية. وهم يريدون بديلاً لرؤية اليهود فقط «من خلال الفيلم الكئيب والدموى غالبًا الذى يُسمى الصهيونية» (1993:57). وهو، والكتاب الذين يقتبس عنهم يكسرون حاجز الماضى القريب بتوضيح كيف يذوى هذا الفيلم عندما يوضع فى ضوء الماضى البعيد ذى الثقافة الإسلامية الراقية. ومثل هذا التناول يلقى الضوء أيضًا على المستقبل.

ولكننا نبدأ بالنظر إلى الماضى القريب، من خلال عيون هؤلاء الكتاب، عندما يدرسونه بأمانة شديدة. ألم تكن الجماعات اليهودية أقرب إلى الحكام الإمبرياليين الأوروبيين الغربيين للبلاد العربية فى القرن العشرين بأكثر مما يجب؟ وهناك فقرة تبلغ الذروة من إسحاق جور ميزانو جورين فى الرواية الثانية من ثلاثيته التى تحمل عنوان صيف الاسكندرية، وضعها فى مصر قبل ثورة ١٩٥٢ مباشرة. وهو يصف شغبًا كاد ينشب حول الأعراق والأجناس عندما يسبق فارس سباق (چوكى)، وهو ابن ليهودى اعتنق الإسلام، فارسًا بدويًا:

«اندلعت صرخة مفزعة من حلق البدوى الأسود المتعطش للدماء. وعلى الرغم من أنها كانت تحمل كل علامة مسرح من الدرجة الثانية، فإنها أفلحت فى أن تصدم الجمهور المتجمع لبرهة من الزمان. وطبعا كان هناك أولئك الذين وجدوا أن هذا النوع من السلوك الفج مرفوضا، ولم يروا فيه سوى عدم القدرة على الهزيمة بكرامة، ولكن الأغلبية سمعت أصداء مختلفة تمام الاختلاف فى تلك الصيحة. وفيما بعد، فى المحكمة، قال بعضهم: إنه سمع فى تلك الصيحة عذاب مصر الذى يسببه لها الأجانب» (Alcalay 1993:259).

وشعر أميرة هيس «يبحث أيضا فى صندوق الماضى المحرم» (Alcalay 1993:260). وفى قصيدتها التى تحمل عنوان «القمر يصطبغ بالجنون» تخبرنا:

أنا ابنة بغداد

يمكنك أن تقسم

كنت من أهالى لندن

أتذكر تلك البوابات من الحديد

وكل ذلك التألق الذهبى

الحراس على خيولهم والخيالة

يا لها من ريح تقرص قدماى

لكى تذكرنى بأننى كنت أنتمى روحًا

ولكنى لا آخذ الجسد

الذى ملكه الوهن والارتعاش

وعندما ظهرت هيس فى برنامج دردشة أدبية فى إسرائيل، كان مضيفها متحيراً تماماً بشأن الإشارة إلى لندن فى القصيدة. وتطلب الأمر أن يقوم ضيف آخر، هو سامى ميخائيل اليهودى العراقى سابقًا، لكى يشرح أن الميدان محل التساؤل فى القصيدة كان نسخة من ميدان لندن شيدته السلطات الاستعمارية البريطانية. ويعلِّق الكالاى: «إن مبانى بغداد زمن الاستعمار، وتغيير الحراس تكون فى الحال هى الامتداد الأعمق لمشهد الطفولة، كما أنها عبء يبعث القشعريرة فى العظام» (1993:261).

وفى وقت ما حوالى سنة ١١٦٠م، توقف الرحالة اليهودى بنيامين التطيلى ليحملق مندهشًا فى المسجد الكبير بدمشق، وكتب:

«هنا حائط من زجاج البللور من بديع صنع الإنسان، وبه ثقوب بحسب أيام السنة، وعندما تدخل أشعة الشمس كلاً منها فى تتابع يومى يمكن معرفة ساعات اليوم بواسطة مزولة مدرجة. وفى القصر المكون من غرف مبنية من الذهب والزجاج، إذا مشى الناس حول الحائط يكون فى وسعهم أن يرى أحدهم الآخر، على الرغم من أن الحائط قائم بينهم» (Alcaly 1993:119).

ويقارن الكالاى ملاحظات بنيامين التطيلى بما كتبته چاكلين كاهانوف الكاتبة التى ولدت فى القاهرة وترعرعت فيها فى القرن العشرين، والتى رأت فى منطقة شرق المتوسط:

«ليست منطقة غربية أو شرقية خالصة، وليست مسيحية أو يهودية أو إسلامية خالصة. وبسبب تنوعها، فإن منطقة شرق المتوسط تقارن بلوحة من قطع أحجار الموزايكو الصغيرة التى تم تجميعها سويًا فى صورة مسطحة. وهى بالنسبة لى تبدو أقرب إلى المنشور تتصل وجوهه المختلفة عند الحافة الحادة للاختلافات ولكن كلاً منها . . . يعكس الضوء أو يبثه . . . وربما يكون الأوان قد آن لمنطقة شرق المتوسط لكى تعيد تقييم نفسها فى ضوئها نفسه، بدلاً من أن ترى نفسها فى أضواء أوروبا، باعتبارها شيئا دخيلاً، متعبًا، ومريضًا، ويكاد يكون بلا حياة» (Alcaly 1993:27).

وتحتاج الاختلافات ـ حتى الجادة منها ـ ألا نخون الوحدة الجوهرية للمنطقة. وعلى أية حال فإن بوسعنا أن نرى، ونفهم ويحترم كل منا الآخر من خلال الزجاج الذى يفصلنا عن بعضنا البعض. ويمضى إلياهو إلياشار ـ الذى تنتابه تعاسة عميقة بسبب وطنه الجديد، إسرائيل ـ شوطًا أبعد بالجدل. إن مفهوم أرض إسرائيل قد خان وحدة المنطقة، وهو يطير فى وجه المعنى الحقيقى للماضى كما يسد طريق الحل فى المستقبل:

«إن أرض إسرائيل جزء صغير من المنطقة التى تقطنها شعوب كثيرة، ومعظمهم يعتنقون ديانة واحدة، وتتملكهم رغبة قوية فى الوحدة. إن أرضنا لم تكن أبدًا وحدة جغرافية محدودة: فقد كانت وما تزال عند معبر الطرق بين الشرق والغرب، بين مصر وآشور وبابل فى الماضى. واليوم، فإن بلادنا هى الكيان الوحيد الذى يمنع الوحدة التى يراها العرب مثالاً» (Cited Alcalay 1993:24)(*).

هل السوق يبالغ فى الاختلافات ويفاقمها أم يقللها إلى الحد الأدنى؟ على مدى ألف سنة برهن المسلمون واليهود على أنهم تجار بارعون. إذ أن قوس التجارة العربية الإسلامى العظيم، الذى يوحد بين البحر المتوسط والمحيط الهندى، توقع الطفرة الثورية للرأسمالية الأوروبية الغربية بما يزيد على خمسمائة سنة. ومع ذلك لا يمكن إنكار أن معاداة السامية فى أوروبا القرن العشرين وجدت من يؤازرها عندما وجهت شعاراتها التى تحض على الكراهية القاتلة ضد اليهود الذين يكسبون من التجارة. بيد أن الإسلام كانت له وجهة نظر أخرى احتفظ بها تقليديًا. و على حد تعبير إبراهام أودڤيتش ولوسيت ڤالينسى:

«حق اليهود... نفذه المسلمون باعتباره كلمة السر لاختصار المساومات. واختتام أية مناقشة بتنفيذ «حق اليهود» يعادل القسم بالأيمان... لأن أهل الكتاب هم أهل القانون، إذن يمكنك التعامل معهم» (Alcaly 1993:21).

ومثل هذه المناقشة تعود بنا حتمًا إلى جويتين، المؤرخ البارز فى التاريخ العربى ـ اليهودى. ولنذكر أنفسنا (الفصل الرابع) أن جويتين لم يماحك فى عظمة الإمبراطورية العربية الإسلامية. وكان مأخوذًا بالتأثير التحويلى على يهود بابل القديمة فى العراق

(*) يحتمل هذا النص معانى كثيرة، وقد تكون متعارضة. وقد استشهد به المؤلف كما هو تمامًا، أما رأى المؤلف نفسه فى أسطورة أرض إسرائيل، فيمكن الرجوع له فى الفصول: الأول والخامس والسادس.

ورفاقهم فى الدين بكل مكان آخر. وربما يكون الأمر أيضا أن جويتين قد ملأ دونما قصد فجوة تركتها دراسة أبرام ليون الرائدة عن كيفية أن الجماعات اليهودية فى أوروبا العصور الوسطى قد قيض لها أن تكون تحت قيادة طبقة تجارية متحركة تمامًا (انظر الفصل الثالث). وقد كتب جويتين وهو يقدم وثائق الجنيزا:

«مع حركة الفتوحات العربية الكبرى التى أعقبت ظهور الإسلام... هكذا بدأت الفترة الطويلة والعظيمة فى التعايش العربى اليهودى... وفى وقت الفتوح العربية الإسلامية، كانت غالبية اليهود ما تزال تشتغل بالزراعة والعمل اليدوى... وقد اختفى الشعب اليهودى كشعب زراعى خلال القرنين السابع والثامن بعد الميلاد، ولكن على عكس السكان القدماء، عادوا إلى الحياة أمة من التجار والحرفيين...» (Alcaly 1993:36).

وقد تصادف التحول الاقتصادى مع تقوية دور المرشد الدينى والروحى لليهود فى كل مكان، وهو التلمود البابلى، ومركزه الجديد الفخور فى مدينة بغداد المبنية من جديد.

وفى تاريخه الذى يحمل عنوان History of Jews، يناقش نسيم رجوان الصحفى المولود فى بغداد، وهو ناقد أدبى ومؤرخ، من المعجبين بجويس، وكافكا، ومان، وأورويل (Alcaly 1993:45) هذهَ المسألة بشكل مطول. وهو بهذا يعطينا ـ ربما عن غير قصد ـ ما نسميه صهيونية عكسية أو مقلوبة.

إذ تنقلب الأساطير المتعلقة بالنفى فى الكتاب المقدس ـ وهى أساطير حيوية بالنسبة للمشروع الصهيونى ـ رأسًا على عقب. ونفس الأساطير المبكرة عن النفى، أى ترحيل اليهود على أيدى الآشوريين منذ ٢٧٠٠ سنة، ثم على أيدى البابليين قبل ٢٦٠٠ سنة، تحولت إلى احتفالات بالحياة اليهودية فى بابل بلاد النهرين القديمة.

فلم«يرجع» معظم اليهود عندما احتل الفرس بابل منذ ٢٥٠٠ سنة، ويقال إن الملك الفارسى قورش ترك اليهود يعيدون بناء المعبد فى القدس. هذا على الرغم من كل «البكاء على ضفاف أنهار بابل» (Rejwan 1989:24).

وهناك يوجد بعض التاريخ الحقيقى. إذ أن هناك دليل على استمرار الاستيطان اليهودى فى بابل، وهناك تفسير لاستمراره، والذى بقى ألف سنة حتى الفتح

الإسلامى، فقد كان الحكم الفارسى عمومًا هو الأفضل من حكم الرومان. ويستدعى رچوان (1989:9) شهادة المؤرخ اليهودى الكبير فى القرن العشرين، سالو بارون.

ويسبر رچوان أغوار رابطة بلاد ما بين النهرين بشكل أعمق. ألم تنشأ الفكرة اليهودية أصلاً هنا فى بلاد ما بين النهرين، وطن أول سجلات الحضارة فى المنطقة، كذلك موطن النبى إبراهيم، المؤسس الروحى للديانات التوحيدية الثلاث الكبرى، اليهودية، والمسيحية، والإسلام؟ يكاد يكون من المؤكد أن بعض قصص الكتاب المقدس، قد كتبت فى بابل. فقصة الخليقة، والطوفان وبرج بابل تحمل «تشابهات مذهلة» مع الأدب البابلى (Rejwan 1989:5).

كذلك يجد رچوان نزعة عالمية فى التلمود البابلى، وهو أكثر حجية من نظيره التلمود الفلسطينى، الذى كتب بعده بقرون فى أعقاب الانتصار الرومانى فى القدس. وهو يكتشف عظات مؤثرة عن مبادئ المساواة الإنسانية، يشدد على اليهود فى علاقاتهم مع غير اليهود (5 - 1989:64) فى خضم رسائل متناقضة، وبالرغم من سريتها وغموضها. ثم جاء الفتح الإسلامى آنذاك ليشجع الوجود اليهودى فى العراق. ونمت جماعة يهودية ـ بسرعة فائقة ـ فى مدينة الكوفة التى كانت معسكراً للقوات العربية الإسلامية جنوب العراق. وكانت هناك جماعة يهودية كبيرة فى البصرة تخرج منها العلماء والأطباء، الذين تولوا مناصب فى مصر وفلسطين (Rejwan 1989:83-4). وصار مركز التلمود البابلى آنذاك فى بغداد. وقد كان من نعم الإسلام على التعليم اليهودى أنه أدى لانفتاحه على تأثيرات كان يسعى إلى تجنبها قبل ذلك. ويقتبس رچوان عن ابراهام هالكين الذى كتب:

«لقد وجدت مفردات العقيدة الإسلامية طريقها إلى الكتب اليهودية: وصار القرآن كتاب برهان ودليل. والممارسة العربية بوضع الشعر فى مؤلفاتهم، أخذها عنهم اليهود. إذ حفلت الكتابات اليهودية بجمل من مؤلفات العلماء والفلاسفة والفقهاء... فليس هناك عداء تجاه التعليم الأجنبى... ولا انزعاج من أنها نفس نفس «الحكمة اليونانية» التى حذرت المصادر التلمودية من أن يدرسوها ليلاً أو نهاراً (Rejwan 1985:148).

وهناك المزيد ـ وأكثر من المزيد ـ يمكن أن يقال عن هذا. فهل يمكن الوثوق ببنيامين

التطيلى فى ملاحظته التالية التى كتبها فى بغداد القرن الثانى عشر، عن زيارة چيونم الذى كان رئيس الأكاديميتين التعليميتين العظيميتين بالمدينة؟

«كان الخيالة من اليهود وغير اليهود يرافقونه كل خميس عندما يذهب لزيارة الخليفة. ويمضى أمامه المنادون يعلنون «افسحوا الطريق لسيدنا، ابن داود، وريثه» وهو يرتدى ثيابًا من الحرير المطرز. . . ويقوم الخليفة ويُجلسه على العرش[بجانبه]. . . ويقف الأمراء المسلمون فى حضرته».

ويورد لوسيان جوباى مؤلف كتاب Sunlight and Shadow هذه الفقرة دونما تمحيص (1992:52). وربما كان محقًا فى فعل هذا. أم أنها من [مثل] موتيفات المؤرخ اليهودى يوسيفوس؟ أم هى زخرفة شعرية ترمز إلى وحدة الديانتين. ويجب أن نضع فى حسباننا أنها تحدثنا عن قرون من التعايش العربى ـ اليهودى.

ولنتوجه بسرعة إلى القدس فى بداية القرن العشرين. انظر وتأمل، فهذا التعايش القديم يعاود الظهور على السطح. وها هو كتاب يعقوب يهوشع بعنوان Childhood in Old Jerusalem، الذى صدر عند بداية القرن العشرين، يتذكر القدس القديمة التى كانت عربية إسلامية على مدى الشطر الأكبر من فترة طولها ألف سنة. وهو يصف اليهود السفارديم، الذين لهم جذور عميقة فى المنطقة تعود إلى إسپانيا الإسلامية:

«إن أبناء وبنات عائلات اليهود السفارديم فى القدس، كانوا أتباعًا شغوفين للموسيقى العربية. وكانوا يحتفظون فى احتراس شديد بآخر الأغنيات التى تم تأليفها فى القدس أو تم إحضارها من القاهرة، وكان كل واحد يستمتع بأعمال سلامة حجازى وكذلك أعمال الآخرين ممن زاروا القدس، وخلطوا الشعر بالموسيقى فى المقاهى العربية، هناك حيث اعتاد المستمعون الجلوس على مقاعد القصب المنخفضة ويدخنون النارجيلة. وكان الجميع يذهبون لمشاهدة فرقة جورج أبيض المصرية عندما كانت تأتى إلى القدس قبل الحرب العالمية الأولى. وكانت مقاهى المدينة القديمة وبوابة دمشق بمثابة مراكز ثقافية وترفيهية للعرب ولليهود على السواء. ولا شك أيضا فى أن مختلف الأغانى من الشعر العربى والموسيقى العربية وجدت طريقها إلى داخل «البيوتيم»، أى الأغانى والترانيم الدينية التى كان الرابيون ورؤساء فرق الإنشاد ينشدونها فى ليالى الجمعة، فى البيت وفى المعبد» (Alcalay 1993:109).

وقد انتهى المطاف بالكثير من يهود العالم العربى فى إسرائيل. وعند وصولهم يتم رش بعضهم بالمبيد الحشرى DDT، لكى يخلصوهم من «عربيتهم» (Alcalay 1993:37). وهذه ليست مبالغة، ولدى الكالاى صفحات كثيرة تصف ما حدث. وعلى الرغم من أن كتاب سويرسكى Israel The Oriental Majority لا يحمل الكثير من التواريخ، فإنه ما يزال أفضل تقديم لهذا الجانب الأقل شهرة من العملية التى قامت بها الصهيونية لتجميع الشعب اليهودى. ذلك أن اليهود القادمين من اليمن ـ إحدى أفقر وأقدم الجماعات اليهودية ـ كانوا «متوحشين وبرابرة»، ولكنهم على الأقل كانوا يعملون بشكل طبيعى وبلا خجل. . . وبدون أن يكون «مستر ماركس فى أدمغتهم»، على حد تعبير صحيفة صهيونية. (Alcalay 1993:43).

أبا إيبان، الديبلوماسى الإسرائيلى «المتحرر»، والمشهور، والباحث فى الدراسات الفارسية بجامعة كمبردج، قدم مرة شرحًا عن اليهود القادمين من العالم العربى. فقال: إن هناك خطرًا حقيقيًا من أن «المهاجرين ذوى الأصول العربية سوف يجبرون إسرائيل على أن تساوى مستواها الثقافى مع مستوى العالم المجاور لها» (Alcalay 1993:31). ولا عجب فى أن شالوم شتريت، وهو إسرائيلى من اليهود العرب، قد كتب مرثية عنوانها «سجين صهيون» (Alcalay 1993:29).

أحيانا، فى بعض الأحيان فقط، يقوم إسرائيلى من أصول أوروبية بقول الحقيقة. وها هى لوڤا إلياف:

«لقد خطفنا منهم الكنز الثمين الذى جلبوه معهم ـ اللغة العربية. . . لقد جعلنا من اللغة العربية والثقافة العربية شيئا كريها وحقيرًا» (Cited Alcalay 1993:24-5).

و على مرّ السنين، كان بوسع قادة إسرائيل، الذين تساندهم بلايين الدولارات الأمريكية أن يضفوا ميزات على الظروف المعيشية لليهود القادمين من البلاد العربية، بما يكفى لجعلهم يصبون جام غضبهم على الفلسطينيين فى قاع البناء الاجتماعى. ويكتب ألكالاى:

«يمكن للإنسان أن يهمهم بألحان فنان عربى مشهور للغاية مثل فريد الأطرش، أم كلثوم، محمد عبد الوهاب، دقيقة واحدة، ويقوم بعمل المستجوب الذى يصير فيه الموضوع الفلسطينى هدفًا لغضب فى غير محله فى الدقيقة التالية.

كل هذه هى طبيعة الطبقة العاملة الإسرائيلية، وكل خطوة فى كل من البناء الثقافى المهيمن، والاحتلال المستمر، تخضع للإغراء الجارف من قبل صناعة الصور الرسمية، وهو ما يؤدى فقط إلى المزيد من إخراس الذاكرة نفسها. . . » (1993:254).

وماذا نفعل حيال يعقوب يهوشع، الذى اقتبسنا من كتابه الذى يحمل عنوان Childhood in Old Jerusalem، وهو جزء من عمل فى ستة مجلد؛ ذلك أن يهوشع الذى صار موظفا صهيونيًا كبيرا « قد استطاع فى صمت أن ينجز دور مدير القسم الإسلامى فى وزارة الشئون الدينية الإسرائيلية أثناء الفترة عندما كانت المؤسسات والآثار الإسلامية ـ والشواهد الإسلامية البارزة ـ محل تجاهل منتظم، أو يتم الاستيلاء عليها أو تُنتهك» (Alcalay 1993:233).

وما يصدم جدا فى هذة الخيانة الشيزوفرينية أنها تمضى فى معظمها دونما تحد أو حتى تحقيق وتدقيق. بيد أن ألكلاى لا يهتز له جفن من جراء هذا الوضع الكئيب. ولا يمكن للخيانة أن تأخذ معها معنى ذاكرة الطفولة. وعلى الرغم من صاحب هذه الذكريات، فإنها تبقى أحد «الأصوات الشاهدة فى البرية» (Alcalay 1993:233).

وألكالاى ثابت فى تمرده ضد إخراس الذاكرة. ولم يزعم أبدا ما هو أكثر من أنه كان يجمع فريقًا من المعارضين العرب ـ اليهود، وهى أقلية ضئيلة. و لكن ألكلاى فى مهمة ثورية «للتهوية على تلك الشرارة من الأمل الآت من الماضى». وهو مؤمن ملهم بأنه فى قول الحقيقة نستطيع على الأقل أن نغير العالم. وهو يجد الإلهام فى أناس مثل شمعون باللاس، وهو يهودى عراقى، صار روائيا فى إسرائيل، ويحكى الحقيقة. ويحتاج الأمر إلى شجاعة حقيقية للقول إنه فعل ذلك حقا:

«إننى لم أنكر أبدا أصولى العربية أو اللغة العربية، على الرغم من أن تعليمى فرنسى أيضا. لقد كانت الهوية العربية وما تزال جزءاً منى. . . إننى عربى حمل هوية إسرائيلية، ولكنى لست أقل من أى عربى آخر فى عروبتى. . . »

وأثناء حرب الخليج الأولى، عندما أطلق صدام حسين صواريخ سكود على إسرائيل، رفض باللاس أن يدين أولئك الفلسطينيين الذين أيدوا الهجوم العراقى. وكان هذا يعنى الانفصام عن حركة «السلام» الإسرائيلية: «بوسعى أن أفهم الفلسطينيين.

أولئك الذين كانوا يصفقون عندما سقطت الصواريخ على الإسرائيليين، لقد فعلوا هذا بعد عشرات السنين من القهر . . . » (Alcalay 1993:243).

ومن الواضح أن الاختبار النهائى هو هذا العبور إلى جانب الفلسطينى. ترى من الذى سوف يتماثل مع محمود درويش شاعر فلسطين العظيم؟ إن قصيدته فى التضامن مع الانتفاضة الأولى سنة ١٩٨٧م سببت ضجة فى الصحافة الإسرائيلية والبرلمان الإسرائيلى. وهرع كثير ممن يسمون «اليسار» من الفنانين الإسرائيليين بحثًا عن غطاء. بيد أن قلائل منهم، مثل الممثل يوسى شلواح أيدوه. قال: إنه ذهب إلى «الأدب العربى الفلسطينى بحثًا عن ثقافتى» (Alcalay 1993:231).

وربما يكون محمود درويش هو الشخص المحورى، حيث ينبغى للشعر أن يسد الصدع السياسى. وهو يمكن أن يتماثل مع الفتى الانتحارى، وفى قصيدته «حالة حصار» يقول الشهيد:

الشهيد يوضح لى : لم أفتش

وراء المدى

عن عذارى الخلود

فإنى أحب الحياة

على الأرض، بين الصنوبر والتين

لكننى ما استطعت إليها سبيلاً

ففتشت عنها بآخر ما أملك، الدم فى جسد اللازورد

ولكن محمود درويش يرى بشرًا فى ملابس الجنود الإسرائيليين. وتبدو نزعته «الإنسانية» أحيانًا كما لو كانت نقصًا فى اليقظة والوعى.

(Mahmoud Darwish, Maya Jaggi's "Profile", Guardian, 6 June 2002)

وظنى هو أن محمود درويش كان سيوافق على الطريقة التى حل بها هذه المعضلة چوزيف سمبرون، وهو مقاتل شيوعى سابق فى المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازى، وأحد الكتاب الكبار عن الهولوكوست. ففى روايته The Cattle Truck،

الراوى الذى يحكى رواية سمبرون سجين فى طريقه إلى بوخينڤالد، ويضفى على حراسه العسكريين صفة الإنسانية، مدركًا بالطريقة التى وضعت بها الإمبريالية والعسكرية الإنسان فى زى موحد.

وقد عاود سمبرون بحث المعضلة فى سيرته الذاتية التى تحمل عنوان «Litrature on Life». وهو يصف قصة حقيقية من حركة المقاومة، عندما مرَّ هو ورفيقه بجندى ألمانى شاب كان جالسًا على ضفة النهر مستمتعًا بالريف الفرنسى. وكان مع الألمانى موتوسيكل وبندقية آلية، ولم يكن لدى سمبرون أى شك فيما ينبغى عمله. ولكنه اندهش لبرهة عندما بدأ الجندى فجأة يغنى «فى صوت عميق محبب» أغنية La paloma. وكانت هذه أغنية مفضلة منذ أيام طفولة سمبرون. وقد جعلت الجندى بريئا على نحو ما: «بريئا ليس فقط من كونه وُلد ألمانيا تحت حكم هتلر... من أنه يجسد رغمًا عنه القوة الباطشة للفاشية. ولكنه برئ أصلاً فى كامل وجوده... لقد كان ذلك عبثا وكنت أعرف هذا...» (Semprun 1997:33,34) ومع هذا، وعلى الرغم من قلق رفيقه، كان عليه أن ينتظر حتى تنتهى الأغنية قبل أن يطلق عليه الرصاص ويرديه قتيلاً.

●●●

خاتمة

... من الرماد

الصهيونية هى المشكلة؛ وإزالتها هو الشرط الأساسى للسلام فى الشرق الأوسط. إنها الشرط الأساسى لمصالحة عربية ــ يهودية فى فلسطين. هذه هى الخاتمة الوحيدة الممكنة لهذا الكتاب. ولست بحاجة لإقناع القراء العرب بهذا؛ لأنه بالنسبة للأغلبية الساحقة من العرب هذه حقيقة لا تحتاج إلى برهان.

ومعظم الناس فى أوروبا وشمال أمريكا ليسوا مقتنعين. وعلى الرغم من أن قضية العدل للفلسطينيين مسموعة بصوت أعلى من ذى قبل، فإنه يبقى هناك اعتقاد باق أن هناك ما يبرر أيضا وجود دولة يهودية فى فلسطين، وأنه يمكن التوفيق بين الموقفين.

ولكن ذلك غير ممكن. وعلى الرغم من أن هناك أصوات قليلة للغاية من اليهود على استعداد لقول ما أقول، عندما يتحدثون بصوت عال، فإنهم يصبحون حليفًا قويًا بشكل فريد للفلسطينيين فى أوروبا وأمريكا.

وكتاب Out of the Ashes، الذى كتبه لاهوتى يهودى أمريكى، هو مارك إيليس، يلفت النظر من حيث أن إيليس يخلص أيضا إلى أن المشكلة هى الصهيونية. بيد أن نقطة انطلاقه ليست هى المجادلات التى تقوم على أرضية منطق اليسار العلمانى، بل نقطة الانطلاق عنده هى الديانة اليهودية نفسها. و لا يمكن أن نستبعد مارك إيليس باعتباره شخصية هامشية. وثمة كتاب سبق هذا عن الحاجة للاهوت «تحرير» يهودى، تلقى خطاب شكر بمبادرة من الدكتور چوناثان ساكس، الذى كان آنذاك رئيس الكلية اليهودية Jew's College، وهو الآن الحاخام الأكبر فى بريطانيا (Jewish Chronicle,7 February 2003).

وعندما تحدث ساكس نفسه علنًا ضد إسرائيل، بل طلب مساواة فى الأديان بين الإسلام والمسيحية واليهودية، تم إسكاته تحت وطأة اليد الثقيلة الباطشة للأورثوذكسية

اليهودية فى بريطانيا . وبالنسبة لإيليس كان هذا عرضًا من أعراض «حرب الضمير الأهلية» اليهودية (2002:47) وهى معركة تدور تحت السطح فى الجماعات اليهودية . أما إيليس نفسه فلا يهادن ويرى فى الصهيونية تهديداً لا يقتصر على الفلسطينيين ، وإنما ينسحب إلى مستقبل اليهودية نفسها .

وثمة نكهة لكتاباته تتبدى واضحة على أول صفحة من الكتاب ، حيث يرى مدافع المروحيات الإسرائيلية اليوم تحدد الحياة اليهودية :

«لدى رؤيا باستبدال لفائف التوراة فى تابوت العهد الذى يجعل بؤرة اهتمام اليهود على الرب والعدل والسلام ، بمدافع المروحيات التى تتحدث عن القوة والبطش دونما أخلاق أو قيم . ماذا نفعل . إننا نتعبد» (2002:1) .

وإيرينا كلبڤيتز واحدة من الأصوات اليهودية العظيمة التى تتحدث فى كتاب إيليس . وكان والدها مايكل كلبڤيتز ناشطًا فى العصبة الاشتراكية اليهودية ، وواحدا من أشجع الأعضاء فى منظمة المحاربين اليهود فى جيتو وارسو . وفى أوائل سنة١٩٤٣م ، هرّب مايكل إيرينا وأمها ، كما اشتغل هو أيضا بتهريب الأسلحة والمواد التى استخدمت فى هبة الجيتو ضد النازى فيما بعد . وفى اليوم الثانى من الهبَّة قُتل مايكل ، بينما كان يحمى مقاتلى الجيتو الآخرين .

وقد وقفت إيرينا كلبڤيتز حياتها على الحفاظ على ذكرى أبيها والحفاظ على المبادئ التى كان يحارب فى سبيلها حية . ولم تتردد فى الربط بين هذه الذكرى والمأزق الفلسطينى . وتقول إنه يجب على الفلسطينيين أن يشعروا «بالغضب الوحشى» الذى كان ينتاب محاربى الجيتو عندما يرون تمزيق الحياة الفلسطينية :

«إن الهيستيريا التى تتملك أمًا أطلق عليها الرصاص ، وعائلة مذهولة أمام منزلها الذى أُزيل أو تم تدميره ، والعائلة ا لتى تفرق شملها ، وتم ترحيلها ؛ والقوانين التعسفية أو الظالمة التى تأمر بإغلاق الدكاكين والمدارس وفتحها ، وإهانة الناس ذوى الثقافة الغريبة والتى يحكم بأنها الأدنى ، شعب ترك فى العراء ، دونما وطن أو جنسية ، شعب يعيش تحت الحكم العسكرى» (Ellis 2002:29) .

ويُضيف إيليس نفسه أن صورة الهبَّة التى جرت فى جيتو وارسو ، ترمز إلى الكبرياء والانتهاك الذى حاق بالحياة اليهودية «تتممه الانتفاضة الفلسطينية» .

وفى إسرائيل أيضا، كشف عدد قليل جدًا من اليهود الإسرائيليين الغطاء. ولكن مرة أخرى، فإن أولئك الذين يملكون المساعدة، يبلورون منظورا يجعل من الممكن التنبؤ بتحالف حقيقى مع الفلسطينيين.

وفى تسعينيات القرن العشرين، صارت مجموعة من المثقفين الإسرائيليين مرتبطين بما «بعد الصهيونية»[1]. وعلى الرغم من أنه ما يزال هناك بعض من الافتقار إلى الوضوح بشأن هذا المفهوم، فإنه يشجع بعض الكتاب على تحدى «حكاية» الصهيونية المهيمنة، وكذلك على أن يبدأوا فى تخيل حياة يهودية فى فلسطين بدون دولة صهيونية. وعلى الرغم من أن هؤلاء المفكرين قلة فى عددهم، فإنهم فى بعض الأوقات يبدون مصدر تهديد حقيقى، يشيرون إلى انعدام أساسى للأمان داخل الحركة الصهيونية، على الرغم من غطرستها وعنفها الخانق. ومن هنا منعت حكومة شارون كتاب تاريخ مدرسيًا يدرس فى الصف التاسع؛ لأنه «ذو اتجاه ما بعد الصهيونية» وليس وطنيا بالقدر الكافى (Nimni 2003:1).

وأقوى الأصوات، سواء ارتبطت بهذا الاتجاه أو تزاملت معه، هم العدد الضئيل من الشخصيات الرئيسية السابقة فى المؤسسة الصهيونية للعمل، الذين يخافون الآن حقًا من الوحش فرانكشتاين الذين ساعدوا هم أنفسهم على خلقه. إن جذورهم العميقة الأولى فى المشروع الصهيونى هى التى تجعلهم ينفصلون بهذه الحدة.

وربما لم يكن هذا ما قصدوه، بيد أن أكبر إسهاماتهم قد تكون مساعدة الآخرين منا فى تكثيف حرب الدعاية ضد الصهيونية فى أوروبا وأمريكا: وهذا هو إسهامنا فى تحرير فلسطين.

وما يلى مستخرجات قصيرة من مقالات، كتبها اثنان من السياسيين الصهاينة فى حزب العمل سابقا، وهى مقالات مذهلة بدرجة أكبر فى أصولها.

أفراهام بورج، ظل لفترة طويلة من كبار ساسة حزب العمل الإسرائيلى. وكان رئيس الكنيست الإسرائيلى من ١٩٩٩م إلى ٢٠٠٣م:

«تستند الأمة الإسرائيلية اليوم على دعائم من الفساد وعلى أساسات من القهر والظلم. وعلى هذا فإن نهاية المشروع الصهيونى على عتبة بابنا...

إن يهود الشتات الذين تمثل إسرائيل لهويتهم العمود الفقرى، عليهم أن يهتموا وأن يتحدثوا بصوت عال...

كان المفروض أن نكون نوراً للأمم...وفشلنا. وتحول الأمر إلى أن تضاءل نضال ألفى سنة من أجل البقاء اليهودى إلى دولة من المستوطنات، تديرها عصبة لا أخلاق لها من الخارجين على القانون.

من المريح جدا أن تكون صهيونيا فى مستوطنات الضفة الغربية مثل بيت إل وأورفا. والفضاء الذى تحدث عنه الكتاب المقدس ساحر. ويمكن أن تحملق خلال النباتات المتسلقة ولا ترى الاحتلال. وبالسفر على الطرق السريعة التى تبعد فقط نصف ميل غرب حواجز الطرق الفلسطينية، يصعب إدراك التجربة المهنية للعرب الذين يعاملون باحتقار، والذين عليهم أن يزحفوا ساعات الطرق الوعرة، المليئة بالحواجز التى خُصصت لهم... راقب هذه اللحظة جيدا: البنية الفوقية للصهيونية تنهار بالفعل مثل صالة أفراح رخيصة بالقدس. ولا يستمر فى الرقص فى الطابق الأعلى على حين تنهار الأعمدة فى الأسفل سوى الرجال المجانين...

إن إسرائيل وقد توقفت عن الاهتمام بأطفال الفلسطينيين، لا يجب أن تصيبها الدهشة عندما يأتون وقد اغتسلوا بالكراهية ويفجرون أنفسهم فى مراكز الهروب الإسرائيلى من الواقع. إنهم يسلمون أنفسهم إلى الله فى الأماكن التى نجد فيها الترفيه والتسلية، لأن حياتهم عبارة عن عذاب. إنهم يريقون دماءهم بأنفسهم فى مطاعمنا لكى يقضوا على شهيتنا لأنهم لديهم أطفال وآباء جوعى ومهانين فى منازلهم. إننا يمكن أن نقتل ألف من قادة المجموعات يوميًا دون أن نحل شيئا، لأن القادة يصعدون من أسفل ـ من آبار الكراهية والغضب من «البنية التحتية» للظلم والفساد الأخلاقى».

وقد نشرت أصلاً فى جريدة يديعوت أحرونوت الإسرائيلية ـ (Guardian, 15 September 2003).

وممنون بنقستى نائب عمدة سابق فى القدس (انظر الفصل الخامس). وهو هنا يصف رفضه «للحكاية الصهيونية». والقصة الحقيقية هى:

«قصة الأهالى الذين يشعرون أن الناس الذين جاءوا من وراء البحر قد لوثوا

عاداتهم الطبيعية وجردوهم من أملاكهم. وبالنسبة لى كان هذا اكتشافًا مذهلاً. لقد جاء بعد كامب ديفيد، بعد أذى سنة ٢٠٠٠م.

ومثلما فهم حكام جنوب أفريقيا تمامًا ـ فى لحظة بعينها ـ أنه لا يوجد خيار سوى تقويض نظامهم الحاكم، كذلك يتعين على المؤسسة الإسرائيلية أن تفهم أنه ليس ممكنًا فرض مفاهيم الهيمنة لديها على ثلاثة ملايين ونصف مليون فلسطينى فى الضفة الغربية وغزة، ومليون ومائتى ألف فلسطينى مواطنين فى إسرائيل. وما يجب علينا أن نفعله هو محاولة الوصول إلى موقف المساواة الشخصية والجماعية داخل إطار نظام حكم واحد شامل فى جميع أنحاء البلاد.

وحتى الآن ليس لدىَّ اقتراح متماسك. وليست لدى خطة عمل. ولكن اتجاه الفكر واضح. إن النموذج الجديد يجد شرعيته فى الواقع الحقيقى... إن تنفيذ حكومة فيدرالية سوف يضرب نوعًا من التوازن بين المجموعتين الوطنيتين. ولن يزعجنى إذا ما كانت المساواة هى أساس هذا التوازن: واحدة بواحدة.

«وأعترف بوجود طبقة عاطفية هنا: هى هويتى الخاصة. إننى فى السبعين من عمرى الآن، ولى الحق فى إبداء الرأى والمشورة. وقد كنت جزءا من كل ما هو هنا: حركة الشباب والجيش والكيبوتزات والسياسة. أنا ملح الأرض، ولست أخجل من ذلك، إننى شخص إسرائيلى فخور مثل زهرة النوار. ولن أدع أحدًا يدعونى خائنًا. لن أدع أحدًا يقول: إننى لست من هنا ـ بما فى ذلك الفلسطينيين ـ إننى كما أراد أبى أن أكون بالضبط: من الأهالى. لقد أراد لى أن أنمو مثل شجرة من تراب الأرض. أرادنى أن أكون جزءًا طبيعيا من الفضاء. وربما يكون قد نجح: إننى ابن واحد من الأهالى. بيد أن هذه بلاد كان فيها العرب على الدوام. هذه بلاد يكون العرب فيها هم المشهد، هم الأهالى. ولهذا لا أخاف منهم.

إننى لا أتصور نفسى أعيش هنا بدونهم، وفى نظرى إنه بدون العرب تكون هذه الأرض أرضًا عاقرًا. «هذه هى نقطة الاختلاف التى تفرقنى عن أصدقائى فى اليسار؛ لأننى حقا ابن من أهل البلاد، أنجبته أسرة من المهاجرين، وقد انجذبت إلى الثقافة العربية واللغة العربية؛ لأنها هنا. إنها الأرض... أحب كل شىء ينبثق من هذه التربة. على حين أن اليمين ـ بالتأكيد ـ يكره العرب، ولكن اليسار يكرههم

أيضا. إن العرب يضايقونهم ـ إنهم يعقدون الأمور. إن الموضوع يولد أسئلة أخلاقية، وهذه بدورها تزرع القلق الثقافى.

هذا هو السبب فى أن اليسار يريد هذا الحائط الرهيب، وهو فى نظرى ضد الجغرافيا، وضد التاريخ، وضد الإنسانية. هذا هو السبب فى أن اليسار يريد الاختباء وراء هذا الحائط الذى هو اغتصاب للأرض.

ولهذا أظن أن الوقت قد حان لإعلان أن الثورة الصهيونية قد انتهت. وربما يجب أن يتم هذا بشكل رسمى، إلى جانب إقرار تاريخ لإلغاء قانون العودة. ينبغى أن نبدأ التفكير بشكل مختلف، ونتحدث على نحو مختلف... لأننا فى النهاية سنصير أقلية يهودية هنا» (Ha'aretz, 8 August 2003).

إن إلغاء قانون العودة الذى يدعو إليه بنقنستى هنا، سوف يؤدى حقًا إلى الإطاحة بدعامة مهمة من دعائم الصهيونية، التى زعمت تاريخيًا لأى يهودى فى أى جزء من العالم هذا الحق. وفى مكان آخر (الفصل الخامس) وصف بدقة طرد اللاجئين الفلسطينيين العرب سنة ١٩٤٨م بأنه «تطهير عرقى». إن حقهم فى العودة هو أيضا شرط أساسى لمثل هذه التسوية.

ومقارنة بنقنستى بدولة الفصل العنصرى فى جنوب أفريقيا صائب. فهناك تم إدراك حقيقة مهمة جدًا فى الوقت المناسب: البنية المستبدة للدولة العنصرية يجب أن تتفكك، قبل أن تعصف بها ثورة دموية.

***

الهوامش

الفصل الأول

الكتاب المقدس.. هو مصدر ملكيتنا

١- عام ١٩٣٦م كان بداية الانتفاضة الفلسطينية العربية ضد الحكم البريطانى والمستوطنات الاستعمارية الصهيونية. الحكومة البريطانية التى كانت تشعر وقتها بإحباط متزايد قامت بإرسال اللورد بيل على رأس هيئة تحقيق ملكية إلى فلسطين للبحث عن سبل لحل الصراع. وستقوم بتناول انتفاضة عام ١٩٣٦م بالتفصيل فى الفصل السابع.

٢- كان لاڤون وزيراً إسرائيلياً فى الخمسينيات من القرن العشرين، وربما كان مسئولاً أو غير مسئول عن فضيحة تورط فيها شباب مصرى يهودى قامت المخابرات الإسرائيلية بتجنيدهم ليقوموا بزرع القنابل فى مصر، وقد تم إعدام ثلاثة من المصريين. أما لاڤون الذى أصر على براءته فأجبر على الاستقالة من منصبه بشكل مخز. وفى عام ١٩٦٠م قدم لاڤون طلباً لرئيس الوزراء بن جوريون بفتح التحقيق من جديد فى القضية بحجة وجود أدلة جديدة. وفى أثناء التحقيقات التى تبعت ذلك ألمح لاڤون إلى تورط وزارة الدفاع فى التستر على بعض المتورطين ومن بينهم أتباع لبن جوريون. ومع ذلك لم تصل التحقيقات فى قضية لاڤون إلى نتائج مرضية وإن كانت بالفعل قد تسببت فى تحطيم حياة بن جوريون السياسية.

٣- مارتن جيلبرت هنا يقتبس من شباتى تيڤيث كاتب مذكرات بن جوريون الذى يتعاطف معه بشكل كبير.

٤-إيجال يادن رئيس قوات الدفاع الإسرائيلية وأحد أشهر علماء الآثار فى البلاد شرح مرة أنه بالنسبة للشباب الإسرائيليين أصبح «الإيمان بالتاريخ» بديلاً عن «الإيمان الدينى». ولكن هذا التمييز ينهار تماما إذا ما قمنا بالتعامل مع العهد القديم بشكل حرفى، أو حتى إذا ما أخذنا بعض المقاطع منه بشكل حرفى. نادية أبو حاج واحدة من الفلسطينيين القلائل الذين كتبوا عن سوء استخدام الصهيونية لعلم الآثار تناولت كتابات يادن بالبحث (Abu Al-Haj (١ : ٢٠٠١م) ولسوء الحظ قامت أبو الحاج بنشر إنتاجها قبل وقت قصير جدا من الانفجار الداخلى الذى شهده علم الآثار الإسرائيلى.

٥- للدفاع عن التناول العلمى للتاريخ (محاولة فهم التاريخ من منظور علمى) انظر إيڤانز (1997).

٦- هذا الطرح مبنى بشكل أساسى على الدور الذى لعبه ناثان، نبى محكمة داود. داود يعترف بخطاياه لناثان ولكن هل كان ناثان نبيّا عبريّا أم مستشاراً لملك محلى آخر يتمتع بدرجة أعلى من الأخلاق والعدل عن تلك التى يتمتع بها داود؟ (Armstrong 1996: 40).

الفكرة هنا هى أن المعايير الوثنية للعدل اختلفت من شيخ قبيلة إلى أخرى. وداود كان مجرد شيخ قبيلة ولم يكن يتمتع بتميز خاص حتى وفقا لمقاييس العصر الذى كان يحيا فيه.

٧- تستطيع الحصول على شريط الڤيديو والكتاب المبنى على السلسلة التليفزيونية، انظر ستجريس(٢٠٠١م) السلسلة التليفزيونية التى قدمها چون ماكارثى يمكن الحصول عليها من CTVC, email: library@CTVC.co.uk.

٨- يوفر كتاب فينكلستاين وسيلبرمان أحدث رصد للموضوع حتى الآن.

٩- يوجد أيضًا دعاية قوية مناهضة للملكية وهى كتب صامويل. وأريد هنا أن أشكر موسى ماكوڤر على ملاحظته العميقة التالية: «يحتمل أن تكون هذه هى أفضل أسفار العهد القديم جمالاً وإثارة. ولا شك أن من كتبوها كانوا رجال دين مناهضين للملكية، وكلهم رفض رفضًا حادًا الممارسات الملكية، ولا يفوتون فرصة دون أن ينتقدوا فيها داود الذى يرونه شريراً حقيقيّا».

الفصل الثانى

نفى اليهود.. هو خاصيتهم المميزة

١-كتاب زيروباڤل رائع وحساس، ولكنه أيضًا، وبلا شفقة، يكشف العديد من التشوهات الصهيونية للتاريخ اليهودى القديم. فانظر على سبيل المثال لتحليلها الناقد للطريقة التى حولت الصهيونية إلى أسطورة كلّ من الانتحار الجماعى فى مسادا بعد سقوط المعبد الثانى فى القدس، أو بعد ذلك التمرد اليهودى على الرومان بقيادة القائد الأسطورى بار كوخبا. فاز الكتاب فى عام ١٩٩٦م بجائزة سالو بارون المرموقة التى تمنحها الأكاديمية الأمريكية للبحوث اليهودية. أود أن أشكر ديڤيد سيزارانى البروفيسور بجامعة ساوثهامتون لأنه لفت نظرى لهذا الكتاب.

٢- لسوء الحظ من غير الممكن أن نعطى فى هذا الفصل لتلك الشخصية غير العادية المثيرة

للجدل، والتى تعرف بيوسيفوس، ما تستحقه من اهتمام. أفضل دراسة له هى دراسة تيسا راجاك (١٩٨٣م). ولأن يوسيفوس شخصية لا يمكن إلى حد بعيد الاعتماد عليها، فإن استخدامى له فى هذا الفصل يعتمد حصريًا على التفسيرات الحديثة الجادة المبنية على دراسات عميقة.

٣- حكام الإمبراطورية الفارسية أعادوا القيادة اليهودية الدينية إلى القدس بعد أن سيطروا على بابل. وكان الحاكم السابق قد دمر المركز الروحى السابق لليهود فى القدس وقام بعد ذلك بنفى اليهود أو على الأقل قادتهم الدينيين إلى بابل. وهناك بعض الحقائق التاريخية فى هذه الحكاية المعروفة من حكايات الكتاب المقدس. ومن أجل الحصول على مقدمة لتحليل علمانى انظر مقدمة كتاب بواز أفيرون (1995: 15-16) وهو كاتب إسرائيلى تقدمى غير صهيونى. انظر أيضًا الملاحظة رقم ١٥ بعد ذلك. وللتعرف على رؤية للتاريخ اليهودى تعتبر نصف علمية ونصف محطمة للقيود الدينية انظر كتاب Jewish History, Jewish Religion للكاتب الإسرائيلى الراحل شاحاك الذى كان ناشطًا إسرائيليًا فى مجال حقوق الإنسان وكان معاديًا للصهيونية.

٤- تشيريكوفر وفاكس قاما بشكل مشترك بتحرير مجموعة مذهلة من البرديات تم اكتشافها فى الصحراء المصرية وعرفت باسم Corpus Papyrorum Judaicarum (CPJ). وهذه كانت بقايا مستندات رسمية وشبه رسمية قانونية تعكس قوانين الحياة الاجتماعية فى مصر تحت حكم البطالمة اليونان ثم بعد ذلك الحكم الرومانى.

٥- هذا مشابه بشكل مذهل للجدل حول أرض الوطن، واليهود فى مصر، الذى دار بعد ذلك بألف سنة. انظر الفصل الرابع.

٦- اشتكى بن جوريون لدويتشر من اليهود الكوزموبوليتانيين عديمى الجذور. (Deutscher 1968: 92).

٧- للاطلاع على تحليل مختصر ولكنه رائع فى وضوحه حول كيف أن اليهودية كادت أن تصبح دين العامة فى الإمبراطورية الرومانية، متضمنًا وصف لتدخل القديس بولس، انظر كتاب هارمن (1999: Chapter 6).

٨- هذا النقش الرائع يعيدنا إلى النقطة التى تناولناها فى نهاية الفصل الأول حول كيف أن السامرة اعتبرت نفسها إسرائيل الحقيقية.

٩- وفقا لشين كوهين فإن «يوسيفوس أراد أن يعترف إليعازر بشكل علنى بأنه هو وأتباعه الذين أشعلوا الحرب قد أخطأوا وأنهم الآن يعاقبون من الرب بسبب خطاياهم» (Cohen 1983: 396) هذه المقالة كتبها كوهين فى Vermes and Neusner عام ١٩٨٣م . ويجادل كوهين هنا بأن يوسيفوس استخدم الخطبة ليشير إلى روما أن المتمردين اليهود كانوا على خطأ حين أشعلوا التمرد، وهو موقف يتلاءم مع شخصية يوسيفوس عندما استقر ليكتب تاريخه، وسعى إلى التقرب من روما بعدما تم سحق التمرد. وكما يقول راجاك بشكل أكثر رقة، فإن «مجرد إعادة توجيه خطابه وتحويله إلى مدح أبناء بلده (فى مسادا)، تلك المعادلة الموالية للفلاڤيين والرومان تأتى مليئة بالتناقضات (Rajak 1983: 221)، وللاطلاع على تفسير حديث مقروء شيق، وإن كان مضللاً، بعض الشىء للتمرد اليهودى ضد الرومان، انظر فولكنر (٢٠٠٢) ونقدى الودود له فى دورية International Socialism العدد رقم ٩٨ وقد قام فولكنر بالرد على فى نفس الدورية العدد رقم ١٠١).

١٠- إحدى لفائف البحر الميت التى تم اكتشافها فى موقع قمران فى القرن العشرين. لفائف البحر الميت هى واحدة من أهم المصادر التاريخية حول اليهودية القديمة.

١١- تمرد الشتات فى عام ١١٧ حطم المجتمعات اليهودية فى مصر والقورينية (ليبيا اليوم). ويوجد الكثير من الإشارات إلى ذلك فى كتاب باركلى(١٩٩٦م).

١٢-لسوء الحظ فإن المساحة المتاحة لا تقف دون مناقشة هذا التمرد غير المفهوم بشكل مفصل. للاطلاع على نقد ساخر للمحاولة الصهيونية الحديثة لدمج بار كوخبا انظر زيروباڤل (1995: Chapters 4, 7 and 10).

١٣-«وجدير بالملاحظة هنا أن المثقفين اليهود كانوا عمالا حرفيين» (Goodman: (1983:93).

١٤-على ما يبدو فإن الدليل يأتى بشكل أساسى من منطقة الحدود مع الجليل (Goodman: (1983: 41-53).

١٥-المقعد التعليمى اليهودى فى بابل فى ذلك الوقت، وتحت رعاية الممالك الفارسية المتجددة، وعلى الرغم من أننا لا نعرف الكثير عنه، إلا أنه فى الحقيقة أهم لتطور اليهودية فى الحقبة الزمنية المتداولة. ينظر إلى التلمود البابلى على أنه أهم بكثير من التلمود الفلسطينى. ولا يمكن بأى منطق أن نعتبر أن هذه المجتمعات اليهودية، التى عاشت تحت الحكم الفارسى، كانت تعيش فى المنفى. الحقيقة أنهم يحسبون عمر النفى الدينى من زمن

نبوخذنصر (انظر ملاحظة رقم٣) ولكن أغلب هؤلاء اليهود لم يتجهوا صوب القدس بعد أن أعاد لها الفرس دلالتها الدينية. أبا إيبان، السياسى الصهيونى الذى أشرنا إليه فى الفصل الأول، كان أيضا عالما فى الدراسات الفارسية. وحتى إيبان يستنتج أن اليهود عاشوا فى منطقة بابل «دون انقطاع» (Eban 1984: 101) لفترة أطول من خمسمائة سنة قبل النفى! وسيتناول الفصل العاشر قصة اليهود فى بابل بمزيد من التفصيل.

الفصل الثالث

ثمانية عشر قرنا من المعاناة اليهودية

١- كيرلبياخ (١٩٧٨م) على سبيل المثال، خصص كتابه فى محاولة إظهار وجود ما يربط بين مارتن لوثر وكارل ماركس، «اليهوديين الكارهين لأنفسهما»، وبين أدولف هتلر.

٢- البروفيسور ماكسيم راديسون نشر مخطوط ليون عن المسألة اليهودية فى جامعة السوربون عام ١٩٦٨م.

٣-انظر هالفى (1987: 93-102) من أجل الاطلاع على تناول مثير لتحولات الخزر وتعليق على ادعاءات آرثر كويستلر على انتشار التحول لليهودية فى ذلك الوقت.

٤-انظر الدورية السنوية Studies in Polish Jewry ، التى يحررها أنطونى پولونسكى. ووفقًا لأحد الحكماء اليهود «فإن سبب تسمية پولندا بهذا الاسم هو أنه يأتى من كلمة Polin، التى تأتى من poh lin بالعبرية والتى تعنى «هنا سوف ترسون».

٥- وهو الذى صدم أتباعه بتحوله إلى الدين الإسلامى.

الفصل الرابع

«نحن، اليهود، و«هم، العرب (١)

رسالة من معبد يهودى بالقاهرة منذ ألف سنة

١- من المفهوم أن جويتن مشغول بالبحث التفصيلى فى التفاعلات الداخلية للمجتمع اليهودى من الناحية الدينية والاجتماعية، بالإضافة إلى علاقة اليهود بالإطار السياسى والاقتصادى والثقافى الإسلامى الأوسع. والتركيز هنا وربما بشكل حصرى على الجانب الثانى.

٢- انظر تعليقات إدوارد سعيد على لويس(١٩٩٥م).

٣- المجتمع الدينى القانونى قد يكون تعريفًا أفضل إذا ما وضعنا فى اعتبارنا فكرة الأمة الملتصقة بشدة بالعقلية الحديثة. وأنا ممتن لفيل مارفليت لهذه الملاحظة.

الفصل الخامس
«أرض بلا شعب ...»

١- كتاب المسألة الإسرائيلية الفلسطينية (١٩٩٩م) الذى حرره إيلن پاپى ساعد على كسر الثلج الذى يغطى هذا الموضوع.

٢- إن تقديم تاريخ دقيق للفلاحين الذين لا يتركون آثارًا مكتوبة عن حياتهم هو أمر شديد الصعوبة. وتعوض دراسة دومانى الرائعة هذه المشكلة من خلال النظر فى المصادر المحلية، مثل سجلات المحكمة الشرعية الإسلامية و المجلس الاستشارى فى نابلس، التى كانت تتضمن عرائض الفلاحين وأوراق التجار العائلية الخاصة.

٣- هذا لا يعنى أن الفلاحين الفلسطينيين فى نابلس هم من نسل السامريين. قد يكون بعضهم كذلك، ولكن علينا أن نتذكر أنه، كما بين الفصل الأول، كيف كانت الثقافة الكنعانية قوية، وهو ما يعنى أن الكثير من الفلاحين قاوموا انتشار اليهودية لأسباب مختلفة.

٤- كان الموقف الرسمى هو أن الإمبراطورية العثمانية كانت تملك معظم الأرض، بينما يدفع الفلاحون ضريبة لاستخدام الأرض. ولكنهم كانوا يمارسون ما يعرف بحق الانتفاع، وهو ما يعنى أنه طالما أن الأرض لم تترك بغير زراعة لمدة ثلاث سنوات فإنها تعتبر ملكًا لهم: وبالفعل كانوا يفعلون ذلك، فقد كانوا يقومون بشراء وبيع الأراضى، وإن كانوا فى أغلب الأوقات وبسبب الديون المتراكمة يتجهون للبيع.

٥- عدم وجود مساحة كافية يمنعنا من مناقشة مصير صناعة القطن الفلسطينية والتى يبلغ عمرها أكثر من ألف عام، وازدهرت بشكل كبير، ثم انتكست فى منتصف القرن التاسع عشر. وللمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر دومانى (١٩٩٥م) فصل «نسيج وتجارة القطن».

٦- رشيد الخالدى هو عضو فى عائلة معروفة من وجهاء القدس. وعمدة القدس الأول كان من نفس العائلة. وكان رشيد مستشارًا للوفد الفلسطينى فى مؤتمر مدريد للسلام عام ١٩٩١م.

تعلم هذا الجيل من المثقفين فى المدارس الثانوية التى أنشئت فى كل مكان بالإمبراطورية العثمانية، فى الجزء الأول من القرن العشرين. ولم تستطع السلطات العثمانية أن تضاهى الإقبال المتزايد على التعليم الثانوى، ولهذا ازدهرت العديد من المدارس الخاصة. وكانت هذه المدارس متواضعة فى مظهرها وكانت تعلم الحساب والعلوم واللغات الأجنبية، بالإضافة إلى حب اللغة العربية والتاريخ العربى. واحدة من أشهر هذه المدارس فى القدس كانت تقوم بشكل متعمد بجمع أبناء الأديان المختلفة، بينما أبهرت مدرسة أخرى المحرر الفلسطينى لصحيفة قاهرية؛ وذلك لأنها كانت على استعداد للتنبيه ضد مخاطر الصهيونية. وكتب المحرر: إن المدرسة كانت «حجر أساس لبناء مستقبل فلسطين». هذه المدارس كانت بمثابة بوتقة صيغت فيها الهوية القومية الفلسطينية (Khalidi 1997: 46-53).

الفصل السادس

«... لشعب بلا أرض»

١- «أناس بلا جذور فى البنية الاجتماعية.. بلا وظيفة.. باعة متجولون.. رجال نحيفة بملابس مهلهلة، أناس يكسبون قوت يومهم من توفيق حالات الزواج وتنظيم الأفراح، مقابل الحصول على نسبة من المهر» (Deutsher 1968: 62).

٢- منحة جوناثان فرانكل الدراسية المعترف بها على نطاق واسع، توفر التوازن المفقود فى علم كتابة التاريخ الصهيونى.

٣- فى الصناعات الهامشية، لعب العمال الذين جاءوا من أقليات عرقية والذين ناضلوا من أجل الحصول على حقوقهم فى أحيان كثيرة دوراً لا يتناسب مع حجمهم فى توجيه الغضب السياسى المتصاعد فى اتجاه تقدمى. ففى عام ١٩٧٧م كان من حسن حظى أننى كنت مراسل صحيفة العامل الاشتراكى لتغطية الإضراب الذى قامت به العاملات الآسيويات فى مصنع جرانويك الصغير فى شمال لندن. تمكن الإضراب من كسب انتباه كل الحركة النقابية والعمالية فى بريطانيا، وقام أرثر سكارجيل ممثل عمال المناجم فى يورك شاير بزيارتهم، وكذلك فعل وزراء فى حكومة حزب العمال من بينهم شيرلى ويليامز. وكان الإضراب يمثل كلاً من الدفاع عن الحقوق النقابية والتضامن بين العاملات البيض والآسيويات، فى وقت كانت الجبهة الوطنية العنصرية تحرز نجاحات ملحوظة على الصعيد الانتخابى فى المناطق العمالية للبيض فقط.

٤- تروتسكى بالطبع كان يهوديًا، وهذا لم يقف دون انتخابه رئيسًا لسوفييت العمال فى سانت بطرسبرج.

٥- لم يتعاف البوند تماما بعد ١٩٠٥م وعلى الأقل لم يرجع إلى قوته السابقة بأى صورة. فرغم أن عملية بناء الحزب بدأت ببطء فى عام ١٩١٠م، إلا «أن الأمور لم تعد كما كانت. فالبوند أصبح الآن يواجه منافسة من حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى الراديكالى ـ من المناشفة والبلاشفة ـ والذى طور من نشاطه بين العمال اليهود. وبشكل عام نجحت الأحزاب الاشتراكية الروسية فى مقاومة الأزمة أفضل من البوند»(Weinstock 1984: 223).

لمعرفة المزيد عن تاريخ الحركة العمالية اليهودية فى القرن العشرين، انظر ناثان واينستوك Le Pain de misere, histoire du mouvement ouvrier juif en Europe (1984) وهو متوافر فقط باللغة الفرنسية. وأنا ممتن لسابى سيجال لأنه قام بترجمة هذه الفقرة من الكتاب.

٦- واينستوك (١٩٧٩م)، وللأسف نفدت طبعات الكتاب الذى يظل واحدا من أفضل عمليات التأريخ الماركسية للاستيطان الصهيونى فى فلسطين.

٧- يتذكر تونى كليف مقهى يهودى فى تل أبيب هوجم وتحطم تقريبا فقط بسبب شائعة تقول إن هناك عربى يعمل فى مطبخه (Cliff 2000: 8).

٨- هذه كلمات كارل كاوتسكى الذى حمل تراث أفكار ماركس مباشرة بعد رحيل فردريك آنجيلز شريك ماركس طوال مشوار حياته.

٩- كتاب بيت حالامى (١٩٩٢م) مصدر جيد بشكل خاص فى عرض قصة نجاح اليهود فى بريطانيا.

الفصل السابع

هل هى إسرائيل الصغيرة الجسورة؟ أم محمية القوة العظمى؟ (١) بريطانيا والمستعمرة الصهيونية فى فلسطين

١- مقتبس من بول فوتر (1980:18) روبرت ستيوارت ڤايكونت كاسلرياه كان وزير حرب فى عامى ١٨٠٦- ١٨٠٧م و ١٨٠٧ - ١٨٠٩م ثم وزيراً للخارجية عام ١٨١٢م. چون سكوف ڤايكونت أول ألدون كان رئيسا لمجلس اللوردات. هنرى أدينجتون ڤايكونت أول

ألدون، كان رئيسًا لمجلس اللوردات. هنرى أدينجتون ڤايكونت أول سيدموث، كان رئيسًا للوزراء فى الفترة ما بين ١٨٠١ و١٨٠٤م ووزيرًا للداخلية بين عامى ١٨١٢ و١٨٢١م.

٢- «نفاق ورياء كنفاق التماسيح». ويا لها من شجرة ممتدة الفروع على المستقبل. تذكر ديڤيد بلانكت وزير الداخلية البريطانى وهو يستعير كلمة تاتشر الساحرة «يُغرقون» وهو يشتكى فى عام ٢٠٠٣م من اللاجئين السياسيين، وفى الوقت نفسه يصر على أن بريطانيا ستحافظ على التزاماتها تجاه طالبى اللجوء السياسى.

٣- يرصد ليڤين (1992 a) سلوك الصهاينة الرهيب أثناء محاولتهم فرض أنفسهم على قمة المجتمع اليهودى فى بريطانيا فى دراسة عميقة عن واحد من الشخصيات غير الصهيونية البارزة فى هذه الفترة والذى نسى بشكل أو بآخر الآن وهو لوسيان وولف.

٤- الصهيونية بلا شك هى السبب الرئيسى وراء «معاداة السامية» فى العالم العربى والإسلامى، وسوف أعود إلى هذه النقطة فى الفصل الأخير.

٥- فى الفصل الخامس كنت ناقدًا لاذعًا لكتاب Origins of Zionism لڤيتال، وهو الجزء الأول من ثلاثيته عن تاريخ الصهيونية. ورغم ذلك فإن قراءة الجزء الثالث من المجموعة The Critical Phase مهمة جدًا لنبدأ فى فهم الإجراءات الغريبة التى أثمرت عن وعد بلفور.

٦- بالغ تشرشل فى تقديره لأهمية اليهود الأمريكيين، معتقدا أن دعم بريطانيا للصهيونية سوف يعزز دعم اليهود الأمريكيين لوجود أمريكا فى الحرب (Cohen 1985: 74). ويقدم ڤيتال تفسيرًا محتملاً لهذا الهوس بسلطة اليهود أثناء فترة الحرب، ويكتب قائلا إن توازن القوى بين الأطراف المختلفة فى الحرب كان «متساويا جدا وغير ثابت ولهذا فكان للخوف أو الأمل فى أن ينجح أى عنصر إضافى فى جعل الكفة تميل هنا أو هناك خوفا له وجاهته» (Vital 1987: 191).

٧-بدأ التمرد كإضراب عام - حملة لعدم التعاون اقتصاديًا مع البريطانيين والصهاينة استمرت لستة شهور. ثم تحول الأمر بعد ذلك إلى حرب عصابات فى الريف. ولا يوجد تأريخ كاف لهذا التمرد.

الفصل الثامن

الهولوكوست النازى ..
برهان الضرورة الملحة لدولة يهودية

١- ينكر بريمو ليڤى أنه كان شاهدًا حقيقيًا: انظر أسبابه مذكورة فى كتاب هوبسباوم

(1 :1994) شهادات الهولوكوست وفنه يتطرقون أيضا إلى هذا الموضوع، الذى لا توجد كلمات قادرة على وصفه، وهو مسألة بقاء يهود على قيد الحياة على حساب موت يهود آخرين. انظر المشهد البربرى فى فيلم Shoah للاندزمان، النص المكتوب للفيلم (16-114 :1985) وأمثلة أخرى فى كتب الكارتون غير العادية Maus الجزء الأول والثانى. (Spielgelman 1987 and 1992).

٢-أود أن أشكر موسى ماكوفر لأنه لفت انتباهى إلى هذا الكتاب المنشور بشكل سرى.

٣-هذا الجزء من الرسالة استشهد به إن. إسرائيلى فى بوبر(١٩٧٢م) إن. إسرائيلى كان اسما مستعارا استخدمه موسى ماكوفر وأكيفا أور، الإسرائيليان الراديكاليان اللذان بنيا تحديا كبيرا للنفوذ الصهيونى وسط الحركة الطلابية الراديكالية العالمية فى ١٩٦٨ وما تبع هذه الحركة.

٤- بعض المستندات المتعلقة باتفاقية التهجير «الترانسفير» أعيد طبعها فى كتاب برينر (٢٠٠٢م) وأقدم تعليقا نقديا على تناول برينير فى الملاحظة التالية.

٥- مشكلة تناول برينر يمكن اختصارها فى العنوان الفرعى لكتابه 51 Documents كتابه السابق Zionism in the Age of the Dictators (1983) كان إبداعًا حقيقيًا يظهر بعض الحالات المريعة التى تعاون فيها الصهاينة مع النازيين فى أوقات معينة. ويظهر الكتاب قدرة الصهيونية على محاكاة معذبها فى بعض الأوقات. ولكن من الغباء أن نصل إلى استنتاج بأن التعاون الصهيونى مع النازيين كان مبنيا بشكل أساسى أو تلقائى على المشروع الصهيونى، وهو تأويل يمكن وضعه على العنوان الفرعى لكتاب برينر 51 Documents. الصهيونية كانت قادرة عن جدارة، على استثارة المقاومة ضد النازيين، كما يوضح زوكرمان أحد قادة انتفاضة جيتو وارسو فى مذكراته الضخمة A Surplus Memory. صحيح أن زوكرمان نفسه كان ناقدا لكسل القادة الصهاينة عندما يتعلق الأمر بالإنقاذ والمقاومة، إلا أنه لم يشك أبدا فى كون الصهيونية نفسها مسئولة عن ذلك. انظر أيضًا رواية ليڤاى الرائعة التى تحمل فى جزء منها سيرة ذاتية للكاتب وهى رواية If Not Now, When? (1987) التى تحكى قصة مناضلين يهود يحاربون النازيين فى الغابات. كون أن هذه الصهيونية نفسها استخدمت مناضليها ومقاوميها الأبطال ضد النازية لتحقيق نتائج متناقضة تماما أيديولوچيا فى فلسطين، هو أمر آخر.

٦- الخروج أصبح أسطورة بنفس الدرجة فى بلدى ومسقط رأسى.

٧- للتعرف على إشكالية رد الفعل العربى، انظر الفصل الأول فى كتاب پاپى «المعركة الديبلوماسية».

٨- رواية البحث عن فاطمة لغادة كارمى .

٩-ولكننا نعلم أن ذلك ليس مقصوراً على الحقبة النازية . ففى عام ١٩٩٤م ذبح حوالى مليون شخص فى رواندا فى مائة يوم فقط ، وهو معدل للقتل أعلى بكثير من معدل الهولوكوست . وقد استخدمت الأمم المتحدة فى وصفها ما حدث تعبير الإبادة الجماعية ولأول مرة منذ الهولوكوست . وكان ما حدث هو محاولة منظمة للقضاء على مجموعة عرقية وهى التوتسى من قبل حكومة الهوتو القوية ، وكان الهوتو يمثلون الغالبية فى روندا . وقد أطلق الهوتو على عمليات القتل هذه «الحل الأخير» . فرق القتل الهوتية تم تجنيدها بشكل مباشر من رحم الانهيار الاقتصادى الذى شهدته البلاد فى أواخر الثمانينيات . وكان رجل إنجليزى قد أدخل علم العرقيات إلى رواندا فى القرن التاسع عشر ، وبعد دراسة متأنية توصل إلى أن التوتسى هو جنس أرقى ، ولهم - فى أغلب الظن - أصول أوروبية . وبعد ذلك لعبت بلچيكا التى احتلت البلاد على الخلافات بين الهوتو والتوتسى بحيث جعلتها سمة مميزة لرواندا . وفى فترة الإبادة الجماعية لعبت دعاية الهوتو على هذه الخلافات . هذه المعلومات من كتاب فيليب جوريفيتش(١٩٩٩م) .

١٠- على الرغم من عدم وجود سلطة دولية جادة لها القوة أو الرغبة فى تنفيذها .

١١- لفت ماكوڤر نظرى إلى ما يسميه الفصل الناقص فى كتابى والذى يجب أن يكون الفصل التالى وفقًا للترتيب الزمنى . هذا الفصل كان يجب أن يتضمن كل الأساطير الصهيونية التى أحاطت بحرب ١٩٤٨-١٩٤٩م . ولكن لحسن الحظ ، كما يقول ، فإن هناك كتابًا كاملاً وليس فصلاً واحداً يدحض هذه الأساطير واحدة واحدة . هذا الكتاب هو The Birth of Israel: Myths and Realities. (1987) لسمحا فلاپان الذى كان صهيونيًا طوال حياته لكنه غير رأيه فى نهاية حياته ، أما الأساطير التى دحضها الكتاب فهى (أ) الصهاينة قبلوا قرار الأمم المتحدة بالتقسيم وأنهم كانوا يخططون للسلام . (ب) العرب رفضوا قرار التقسيم وخططوا للحرب . (ج) الفلسطينيون هربوا بشكل طوعى بهدف إعادة الغزو . (د) كل الدول العربية اتحدت لطرد اليهود من فلسطين . (هـ) الاحتلال العربى جعل من الحرب أمراً لا يمكن تجنبه . (و) إسرائيل التى لا تستطيع الدفاع عن نفسها واجهت التدمير من قبل جالوت العربى . (ز) إسرائيل كانت دائمًا تسعى للسلام ولكن لم يكن هناك أى زعيم عربى متجاوب .

الفصل التاسع

هل هى إسرائيل الصغيرة الجسورة ؟ أم محمية القوة العظمى؟ (٢) الرصيد الاستراتيجى للولايات المتحدة

١- وأنا أنهى كتابة هذا الفصل فى صيف ٢٠٠٣م، نشر العالم الفلسطينى ناصر عرورى كتابه Dishonest Broker: the US Role in the Middle East and Palestine . وهو كتاب ممتاز يجب قراءته مع كتاب تشومسكى.

٢- لتحليل موضوعى للمساعدات العسكرية الأمريكية لإسرائيل يمكنك زيارة موقع Washington Report on Middle East Affairs على الإنترنت تحت عنوان المساعدات الأمريكية المالية لإسرائيل: الأرقام والحقائق والتأثير.

٣- موقع Middle East Research and Information Project: www.merip.org .

٤- سأناقش «معاداة العرب للسامية» فى الفصل العاشر.

٥- كتاب أروري (2003: 205-9) يقدم رصدا دقيقًا لهذه الحقبة الخسيسة من فترة ولاية الرئيس بوش.

٦- هذه النقطة ناقشها الكس كالينيكوس بالتفصيل فى مقاله الاستراتيجية العظمى للإمبراطورية الأمريكية فى دورية International Socialism Journal العدد السابع والتسعين (London: Socialist Workers Party, 2002).

٧-انظر مقال إم. تى. كلير «خطة بوش الأساسية للنفط» والمنشورة بتاريخ ٢٣ أبريل ٢٠٠٢م على موقع www.alternet.org وهى المقالة التى تناولها كالينيكوس فى مقاله سابق الذكر.

٨- انظر أيضا مقال جاسون ڤست «رجال من JINSA و JSP» فى مجلة ذا نيشن الأمريكية بتاريخ ٢ سبتمبر ٢٠٠٢م وهو متوافر على شبكة الإنترنت.

٩- فى وقت التحرير النهائى لهذا الكتاب فى أبريل ٢٠٠٤م، كان مصير خارطة الطريق قد أصبح واضحا. فقد تبنى بوش خطة شارون بانسحاب أحادى الجانب من قطاع غزة وتعزيز معظم المستوطنات اليهودية فى الضفة الغربية. ورفضت الولايات المتحدة الأمريكية توجيه النقد لإسرائيل لاغتيالها قادة حماس الشيخ أحمد يس والشيخ عبد العزيز الرنتيسى فى

تناقض سافر لنقد الرئيس بوش قبل ذلك المحاولة الفاشلة لاغتيال الرنتيسى. وبالإضافة إلى ذلك سمحت الولايات المتحدة لإسرائيل بالاستمرار فى بناء ما يسمى بالجدار الأمنى، والذى يسميه المراقبون فى كل مكان فى العالم بجدار الفصل العنصرى. وبات من الواضح أن بوش وشارون استبعدا حتى القادة العرب الأكثر اعتدالا وهما يضعان نهاية خارطة الطريق.

من المؤكد الآن أن المحافظين الجدد يتحكمون بشكل كامل فى حكومة بوش، ربما. ولكن ألم تكن حكومة بوش أيضًا تشهد علامات يأسها وتتمسك بصديقها الوحيد فى منطقة الشرق الأوسط فى الوقت الذى كانت سياستها فى المنطقة، وبشكل حرفى، تتبخر مع دخان القنابل؟ فسياسة بوش فى العراق أدت إلى إحداث فوضى جعلت بوش يطلب من الأمم المتحدة التدخل لمساعدته فى الخروج من هذه الورطة، وهى بالضبط السياسة التى كان المحافظون الجدد يرفضونها. بل إن بوش قام أيضا بمدح الأخضر الإبراهيمى مبعوث الأمم المتحدة إلى العراق، فى نفس المؤتمر الصحفى الذى أعلن فيه عن تأييده لشارون والذى عقده فى البيت الأبيض فى ١٦ أبريل ٢٠٠٤م. وقد يتذكر القارئ البريطانى وجود رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير وهو يقف بائسًا فى ظله. ومع ذلك رفض إبراهيمى سياسة بوش تجاه إسرائيل، ولم يخش من مهاجمتها بشكل علنى. وعلى الفور بعد تبنى بوش لسياسات شارون، قام الإبراهيمى عدة مرات بمهاجمة إسرائيل بشكل حاد واصفا سياساتها بأنها ليست أكثر من «سمٍّ فى المنطقة» (Ha 'artez, 24 April 2004).

الفصل العاشر

«نحن، اليهود، هم، العرب (٢)
التعايش اليهودى العربى المفقود
والبحث عن شعلة الأمل من الماضى

١- يناقش كرامر التنوع الكبير للخلفية الإثنية ليهود مصر فى كتابه The Jews of Modern Egypt 1914-1952. وعلى الأرجح كانت أقدم جماعة يهودية فى مصر فى بدايات القرن العشرين هى الكرايتين (Kramer 1989: 22-6)، وكان عددهم ما بين ستة وسبعة آلاف يهودى من أبناء البلد من بين جالية مهاجرة وصلت إلى حوالى خمسة وعشرين ألفًا فى مصر عام ١٨٩٧م.

٢- عباس شبلاق من الفلسطينيين القلائل الذين كتبوا عن اليهود فى البلاد العربية.

٣- اقرأ ما كتبه نعيم جيلادى أحد أعضاء الفهود السود على موقع www.inminds.co.uk على شبكة الإنترنت. تستطيع أيضا الاطلاع على الفصل ذى الصلة فى كتاب ديڤيد هيرست البندقية وغصن الزيتون على الموقع التالى: www.mideastfact.com/ iraqi- jews-hirst.html وأنا مدين بالشكر لرونالد رانس لأنه لفت انتباهى لهذين الموقعين.

٤-الكتاب هو دورية باللغة الإنجليزية يصدرها اليهود العراقيين السابقين، ويمكن الحصول عليها من على شبكة الإنترنت من خلال البريد التالى scribe@dangoor.com.

٥-الانقلابات العسكرية التى قام بها ضباط عرب فى الجيش برتب متوسطة وصغيرة كانت ضرورية فى النهاية للتخلص من الحكم الاستعمارى، وهو ما جسد فشل كلّ من الحركات الديمقراطية الليبرالية والحركات الشيوعية فى تحقيق ذلك.

٦-لمزيد من التفاصيل حول هذا الجزء المتجاهل من تاريخ الشرق الأوسط، انظر كتاب شلايم (23-117 :2000). إن انفتاح عبد الناصر بل وربما حتى عقلانيته الساذجة فى تلك المرحلة المبكرة من حكمه يرد على كل الصور التى حاول الصهاينة والغرب رسمها للزعيم المصرى الراحل.

٧- بحث جويل بينين (١٩٩٨م) رائع، ولكنى أتفق معه بشكل جزئى فى تفسيره، حيث يرى أن كلاً من القومية العربية والصهيونية مسئول بنفس الدرجة عن إبعاد اليهود المصريين.

٨- هذا أيضا كان مصير يوسف درويش. وقد حالفنى الحظ وقابلت هذا القائد الشيوعى المصرى السابق فى القاهرة عام ٢٠٠٢م. كان درويش وهو فى عامه الواحد والتسعين بصحة جيدة وهو يتحدث بحرية وعمق عن خلفيته اليهودية وعن عدائه للصهيونية والدمار الذى لحق بالقضية الشيوعية بسبب اعتراف ستالين بإسرائيل. لقد كان لدى يوسف درويش كل حجة للانفصال عن أصوله المصرية. فقد تعرض للتعذيب مع العشرات غيره من الشيوعيين فى سجون عبد الناصر. بل إن الشيوعيين المصريين أنفسهم فرضوا حظراً يمنع تولى اليهود الأعضاء من الترشيح لعضوية اللجنة المركزية، وذلك على الرغم من تحول ثلاثة من القيادات القادرة على ذلك إلى الإسلام، وكان بينهم يوسف درويش. كان ذلك مثالاً قاسيًا وإن كان دقيقًا لعدم قدرة حتى الأطياف اليسارية فى الثقافة السياسية على الوقوف فى وجه الخطاب السائد الذى حركته الصهيونية وتبنته القومية العربية خاصة بعد حرب السويس. كل يهودى، حتى من أسلم منهم، كان خائنًا محتملاً للأمة العربية. وبالطبع يمكن أن نفسر ذلك بأنه

معاداة عربية للسامية، ولكن الأهم من ذلك أنه عكس حجم نجاح الصهيونية فى تحديد تعريف اليهودى فى الشرق الأوسط لتجعله يعنى مواطنًا محتملاً للدولة اليهودية المقامة على أرض يهودية مسروقة. ولكن لم يؤثر أى من ذلك على حماس درويش لمعتقداته اليسارية أو على حبه لمصر وثقته فى إمكانيات شعبها.

للمزيد من المعلومات عن يوسف درويش انظر المقال الذى كتب عنه فى مجلة كايرو تايمز التى تصدر باللغة الإنجليزية فى عددها الصادر فى نوفمبر ٢٠٠٠م، ويناقش جويل بينين هو الآخر يوسف درويش وباقى الشيوعيين اليهود فى كتبه

Was the Red Flag Flying There? Marxist Politics و The Dispersion of Egyptian Jewry and the Arab-Israeli Conflict in Egypt and Israel, 1948-1965.

خاتمة ... من الرماد

١- انظر سيلبرستاين (١٩٩٩م) ونيمنى (٢٠٠٣م).

***